II

فهم الثقة وسوء فهمها

نبّه نيتشه على نحو رائع إلى أن أقرب الأمور إلينا هي أبعدها عن درايتنا (شدة القرب حجاب). يمكن أن نظن أن هذا نوع من العمى، إنه عدم القدرة وعدم الرغبة في رؤية ما هو صحيح أمام أم أعيننا. كثير من الناس هم عميان أمام الثقة ليس أمام منافعها ولكن أمام طبيعتها والممارسات التي تجعلها ممكنة. وفي الواقع إن هذه الممارسات تنزع إلى أن تكون غير مرئية، والثقة تبدو لمعظم الناس معظم الوقت جد شفافة وجد بسيطة وجد طبيعية وليس فيها إشكال أبداً ـ إلا في تلك المناسبات والمواقف الخاصة المخيفة عندما يغرر بنا ونلقى الخيانة ـ ولذلك لا يوجد الكثير مما يلزم ملاحظته ويوجد أقل مما يلزم فهمه. إما أن نثق بأحدهم أو لا نثق به. إذا كان الناس يستحقون

الثقة نثق بهم، وإذا لم يستحقوها لا نثق بهم، وإذا وثقنا بهم نفعل ذلك دون تفكير. وفي الواقع، أن يَعجَب المرء معناه أن يقلق وهذا ليس معناه أن يثق.

ولكن قد يكون مثل هذا العمى خطراً إذ يعوق رؤيتنا ونتيجة لذلك يعوق رغبتنا في الارتباط بالثقة الأصيلة. وهذا العمى يؤدي إلى سوء فهم الثقة وأسوأ من ذلك يؤدي إلى ممارسات تزرع عدم الثقة وتنميه. إن تجاوز مثل هذا العمى يجلب نتائج موحية وخاصة ظهور إرادة لبناء الثقة حيث لا تكون موجودة أو إعادة تأسيسها حيث واجهت الخيبة والخيانة.

كيف نسيء فهم الثقة؟

نحن نميل إلى التفكير في الثقة على أنها ساذجة أو بسيطة. نفكر في الثقة على أنها راكدة ساكنة غافلة غير متحفظة وتقبل أمراً مسلماً به مثل الثقة التي يكنّها الأولاد لآبائهم. ولكن عندما تُخان مثل هذه الثقة لا يمكن استعادتها أبداً. وهي في هذا تشبه الحب الأول ذلك الافتتان البريء الذي يسبق كل معرفة وكل حكمة في الحب. ولكن الحب الأول ليس حباً حقيقياً، والثقة الساذجة ليست ثقة أصيلة. إن الثقة الأصيلة تتطلب الحكمة لا السذاجة.

في بعض الأحيان نخلط بين الثقة والثقة العمياء، ونرفض حتى النظر في أية بينة أو دليل على أن المرء ينبغي ألا يكون

شديد الثقة أو أن على المرء أن يخفف ثقته. إن نوع الثقة الذي يطلبه رؤساء العقائد الدينية وبعض مدراء الأعمال هو ثقة عمياء (مع أنهم نادراً ما يكونون عمياناً في ثقتهم باتباعهم). أحياناً تكون الثقة العمياء رد فعل لعدم الثقة، تكون قفزة إلى أقصى الطرف المقابل من موقف «أنا لا أثق بك» إلى «سأثق بكل ما تقول وتفعل» هذا الميل إلى الانتقال من عدم الثقة إلى الإيمان الأعمى يشكل أحياناً دراسة نفسية رائعة، ولكنه في أغلب الأحيان ينم عن السذاجة وعن نقص في إدراك كافٍ للنفس أو للقيم الموطّدة. من الصعب أن يعيش المرء مع عدم الثقة أو مع طوارئ الثقة وظروفها ولكن تلفيق ثقة غير مشروطة عوضاً عن ذلك ليس فضيلة بالضرورة.

إن الفكر غير النقدي الذي يرى أن الثقة غير مشروطة قد يتوارى في الطريقة التي نتحدث بها عن الثقة. نحن نادراً ما نحدد ثقتنا في التفاصيل كأن نقول: «نثق أن سام ينهي تنظيف الصحون قبل الساعة التاسعة» نحن نقول غالباً: «أنا أثق بك» أو «أنا أثق بفلان» أو «أنا أثق بالشركة بدون التفصيل في الأوصاف والحدود». ولكن يجب التمييز بين ما نقوله بشكل واضح صريح («أنا أثق بك») وبين ما هو متضمن في المحادثة وفي الوضع. ولا نحتاج عادة أن نضيف: «طبعاً هذا لا يعني أني يمكن أن أثق بك لإجراء عملية جراحية في الدماغ». إن الثقة قد تبدو غير مشروطة لأنها تنزع لأن تكون في النهاية مفتوحة

الخيارات وتكون أحياناً فقط مقيدة بمهمة واحدة أو تعهد واحد. ومع ذلك فإن الثقة دائماً مشروطة ومركّزة ومقيدة ولذلك هي محدودة. ونسيان هذا الأمر قد يكون أشبه بتوقيع شيك على بياض. وعداً بأي شيء لأي شخص كان ومعناه وضع الإنسان نفسه عرضة للاستغلال والخيانة، وبهذا المعنى الثقة غير المشروطة هي مجرد نسخة أخرى عن الثقة العمياء.

ومع ذلك يوجد معنى آخر للثقة غير المشروطة وهو معنى أكثر أصالة بكثير وهو انفتاح ملتزم أكثر منه مجرد نقص في التمييز. أن تثق بشخص ليس معناه أن تقول: «أي شيء يصلح» ولكن معناه بالأحرى أن يُبقي الإنسان ردود فعله وتوقعاته ورغباته مفتوحة للمفاوضة. لا يوجد أية عقبة خاصة أو خيبة خاصة أو خيانة خاصة تؤدي بمثل هذه الثقة إلى الانتهاء، لأن ذلك النوع من الثقة موقوف على علاقة أو قضية أو ممارسة هي في حد ذاتها مفتوحة الخيارات في النهاية ـ مثلاً جعل المرء زواجه ناجحاً أو توطيد السلام في العالم. ولكن هذه تكاد لا تكون الثقة غير المميزة نفسها التي تسمى بهذا الاسم.

نحن أيضاً نخلط الثقة بالألفة. ولكن كما بيّنا من قبل لن تستطيع الألفة أن تكون شرطاً ضرورياً للثقة. ومن المهم بنفس الدرجة أنها ليست شرطاً كافياً أيضاً. قد يهيء الشعور بالألفة دوافع للثقة، ولكن الألفة وحدها لا تستطيع أبداً أن تكون مسوغاً للثقة. جميعنا نرتكب خطأ التفكير في أن أحد الناس

جدير بالثقة لأنه يشعر بالألفة نحونا أو لأنه كان «مقرباً منا لفترة من الزمن». إن الدجالين الذي يتقنون فن الدجل يعرفون كيف يجعلون أنفسهم أليفين وفي الوقت نفسه يعدّون أنفسهم ليسلبوك كل ما هو غال عندك. ليست الألفة سبباً كافياً لافتراض أن أياً منهم كان يهتم بك فعلاً أو يشاركك قيمك. إن الألفة لا تقول شيئاً إن كان الشخص مخلصاً أو جديراً بالثقة. علاوة على ذلك فإن الألفة ليست تأكيداً للكفاية. ومجرد أن يكون الشخص أليفاً في دور من الأدوار لا يعني أن له نفعاً في ذلك الدور. الطبيب الذي ألفته بالرغم من لطفه وسلوكه الحسن المريح بجانب السرير قد يكون دجالاً. ميكانيكي السيارة الذي تعرفه جيداً وتشتري منه الوقود لسيارتك كل أسبوع قد يكون غير كفء. أعز صديق لك قد يكون أسوأ اختيار لك إذا احتجت منه مساعدة مهنية أو نصيحة. يتعلم المرء لا سيما في مجال الأعمال أن الألفة هي غالباً أساس سيء للثقة.

نحن أيضاً نميل إلى جعل الثقة آلية بكلمات أخرى نحن نخلطها بالاتكال والاعتماد وهما مزيتان لآلة جيدة. ولكن الثقة ليست مسألة توقع وآمال. إنها بالضرورة تتضمن تفاعلات وعلاقات (لا يهم مدى كونها موجزة) إنها وظيفة تعهداتنا النشيطة التي بدورها تتخذ صيغة التبادل. تتضمن الثقة العمل لا مجرد الإيمان. تتضمن الفعل المتبادل لا الاتكال السلبي والتوقع. الثقة هي صيغة الارتباط بين الأشخاص، وليست مجرد إجراء الحسابات.

نحن أيضاً ندمج بسهولة أكثر مما ينبغي الثقة وجدارة الثقة معاً كأنهما ببساطة كلمتان مختلفتان لنفس الظاهرة وجهان لعملة واحدة. هذا الأمر صحيح بمعنى ما ولكنه سرعان ما ينزلق إلى دعوى أن السبب الوحيد الصحيح للثقة بشخص ما هو كونه جديراً بالثقة. وعلى نحو مماثل نميل إلى الافتراض أن شخصاً ما جدير بالثقة إذا (وفقط إذا) كان بالإمكان الوثوق به. ولكن ينبغي ألا نفترض أن علاقة الثقة تتضمن الثقة وجدارة الثقة على جانبين متقابلين. إذا افترضنا ذلك نكون قد أفرطنا في تبسيط علاقة بالغة الغنى والدقة. ولطرح المسألة طرحاً بسيطاً نقول: نستطيع أن نثق بشخص لسبب معقول دون أن يكون ذلك الشخص جديراً بالثقة (كأن نثق بطفل تعلّم لتوّه بعض المهارات والمسؤولية) ونستطيع لسبب معقول أيضاً أن نرفض إيلاء ثقتنا شخصاً جديراً بالثقة حقاً (مثلاًإن كان لدينا سبب خاص يجعلنا ننفذ المهمة بأنفسنا). في الثقة كما في الحب العلاقات غالباً غير متعادلة وغير متناظرة إذ إن أحد الطرفين يثق أكثر بكثير من الآخر. والعلاقة بين الثقة وجدارة الثقة هي في كل حال «جدلية» - أي أنها ديناميكية ومتبادلة التعريف (تعرف إحداهما الأخرى).

يفكر الفلاسفة ورجال القانون غالباً في الثقة بمعنى (أن يحفظ المرء وعوده) ولكن هذا المعنى مقيد جداً. نحن لدينا عهود ونصنع عهوداً كثيرة لا تعتمد على وعود صريحة واضحة. إن الثقة غالباً ضمنية. قد تعتمد على تخمين واضح صريح وعلى

تقييم إمكانيات الشخص المفضّلة والمبلّغة ولكنها قد تصبح بالضرورة مجرد تخمين ضمني أو ببساطة طريقة «شفافة» في الوجود. نحن نضع أنفسنا في علاقات ثقة طوال الوقت، وغالباً دون أن نعد بأي شيء لأي إنسان.

نحن أيضاً نخلط بسهولة التبصر بالثقة. قد تكون الثقة متبصرة وهي غالباً كذلك، وهذا يؤدي على المدى الطويل إلى أفضل النتائج. ولكن الثقة ليست في جذروها مهتمة بنفسها وأكثر من ذلك ليست أنانية. إن الثقة المحسوبة، الثقة التي تعول فقط على لعبة حساب المصفوفات Matrix ذات الفوائد والنتائج ليست بثقة. إن الثقة شأنها في ذلك شأن جميع الفضائل فيها عنصر قوي كي تكون «جيدة في ذاتها هي» ولكن مثل جميع الفضائل تنتهي عموماً بأن تكون جيدة في نتائجها.

يثق زوجان أحدهما بالآخر لا لكي يحصلا على ما يمكنهما الحصول عليه خارج الزواج ولكن لكي يكونا زوجين سعيدين ينبغي أن يثقا. إن الزواج الذي يعتمد على حسابات المنفعة الشخصية هو زواج محكوم عليه بالاضطراب والعناء. والأمر على هذا النحو في مجال الأعمال فالثقة التي تعتمد فقط على المنفعة المحسوبة تنقلب بسرعة إلى ضبط بيروقراطي وارتياب ودفاع ومجرد براعة. وهذا ينقص المرونة والسرعة وهو أيضاً يعوق علاقات الزبائن ويعرض القيم للشبهة ويحدث خسارة بالغة وخاصة في فرض الأسعار.

ليس معنى الوثوق اتباع القواعد. في زمن الستينيات سرى شعار بين الشبيبة الذين هم في عشرينيات أعمارهم «لا تثق بأحد فوق الثلاثين من عمره» (عندما جاوزت الأغلبية ممن اطلقوا هذا الشعار عمر الثلاثين كان لا بد من تغيير القاعدة). كان الآباء يقولون لأولادهم «لا تتكلموا مع الغرباء» وكان الكثير من البالغين يتبعون قاعدة: «لا تثق بأحد لا تعرفه» ولكن الثقة هي قبل كل شيء انفتاح وممارسة مرنة تعتمد على حكم خاص بكل علاقة على حدة بصرف النظر عن السياسات العامة غالباً. لقد لاحظنا أن المهندسين والمدراء «العلميين» خاصة يريدون أن يجعلوا الثقة في قاعدة على طول الخط وهي «استقص دائماً إذا كان الناس جديرين بالثقة». إنهم يعاملون الناس كأنهم آلات، وكأن من المتوقع أن يتبعوا القواعد ولكن الكائنات الإنسانية ليست آلات ومع أنهم بالتأكيد حيوانات تتبع القواعد إلا أن دور القواعد في العلاقات الإنسانية غالباً ما يغالى فيه على حساب الإبداع والحرية بما فيها من الحريات الأساسية كحرية (الضلال) وحرية أن يكون المرء غير قابل للتوقع في سلوكه وحرية أن يغير الإنسان رأيه وحرية الإنسان في خيانة أولئك الذين وثقوا به. فكيفية ثقة المرء بالناس لها على الأقل صلة بالعلاقة الخاصة بهم بقدر ما لها صلة بقواعد السلوك الإنساني.

وعلى خلاف الكثير من الكتابات الحديثة في هذا الموضوع ليست الثقة وسيطاً ولا جواً ولا مزلقاً اجتماعياً أو

صمغاً. ليست الثقة شيئاً أو تلك المادة التي كان يشير إليها جورج ولهم فردريك هيغل Hegel على أنها «جوهر» إذا كنا بهذا التعبير ننكر ديناميكية الثقة وحيويتها. الثقة هي مجموعة مفتوحة الخيارات في النهاية من الممارسات والنشاطات، وهي أيضاً تفاعلات لعلاقات نشيطة وليست هراء أو سقط متاع ـ أما لماذا تبدو الثقة بسهولة رابطة سلبية، أكثر منها حصيلة تفاعل ديناميكي وتواصل، فهذا بحد ذاته جزء مهم من الصورة. ونحن نقترح أن لهذا صلة بالطريقة التي تتراجع فيها الثقة إلى خلفية العلاقات، ولكن ليس هذا معناه أن الثقة تصبح نوعاً من الوسيط الخفي الغامض.

ليست الثقة مشاعر ومع ذلك ولأنها تثير بوضوح نسقاً من الانفعالات والأمزجة والعواطف فقد نظن أن الثقة هي مشاعر، حالة للذهن تكاد تكون قابلة للكشف، شعور هادئ بالراحة، عاطفة رقيقة ولكن لا يوجد شعور بالثقة على هذا النحو وإنقاص الثقة إلى مجرد مشاعر يتجاهل مظاهر الثقة التفاعلية والديناميكية لصالح «حدس» أكثر سلبية أو أقل. يعتقد الناس غالباً أثناء التطبيق لا في النظرية أو في التفكير ـ أنهم إنما يثقون بالآخرين لمجرد أنهم يحبونهم أو لأن لديهم «مشاعر طيبة» تجاههم. ونقول على الأغلب: «أشعر كأني أستطيع أن أثق بفلان أو علان» ولكن هذا يعني فقط «أظن أن عندي أسباباً لأثق بفلان و علان» وليس «أن عندي مشاعر مميزة»، (كما لو

كان عند المرء ألم في الرأس أو أنه يمر بتجربة قلق). ربما توصف الثقة جزئياً بتعابير تدل على غياب مثل هذه المشاعر كالقلق والذعر وكذلك الشعور بالهدوء، ولكن الثقة في حد ذاتها ليست مظهراً متميزاً لحياتنا المدركة بالحواس (المشاعر). ومع ذلك لا مناص من أن الثقة متضمَّنة في انفعالاتنا وأمزجتنا. ينبغي أيضاً أن تميز الثقة عما نسميه النفاق الودي، تلك الواجهة المألوفة من الإرادة الطيبة والمواءمة التي تخفي وراءها عدم الثقة والارتياب. إن الابتسامة السطحية المصطنعة في النفاق الودي قد تبدو وكأنها تدعم انسجام المجموعة في المعمل أو العمل الجماعي إلا أنها هدّامه لكليهما. إن النفاق الودي إشكالية صعبة خاصة في محيط المؤسسات مثل جماعات العمل والشركات، ولكنه أيضاً مألوف بشكل مؤلم في الزيجات المضطربة التي تجمع بين الزوجين بخيوط واهية نابعة من العادة والتناسب ومجرد المجاملة. ولكن عندما ندعي أننا نثق حتى ولو كنا نؤمن أننا نثق وأننا أهل للثقة فإننا نمسك عن الأخبار النقدية ونعلّق (تبادل الأفكار). وسواء كان هذا خوفاً من جرح المشاعر أو خوفاً من الدخول في جدال أو خوفاً على وظائفنا أو خوفاً على زواجنا فإننا في ذلك نخاطر بأن نخسر أكثر مما نربح. إننا نفضل أن نتخذ الطريق الآمنة المهذبة على أن نستكشف استقامة أشد خطراً. ولكن التهذيب غالباً يخفي مشاكل حقيقية تسمم العلاقات في حين أن الأذى الذي يسببه الكشف الأمين هو وقتي ومحدود.

غالباً ما تشجع المؤسسات النفاق الودي بزعم الحفاظ على الانسجام وإنقاص الاحتكاك. وتكون النتيجة نقيض ذلك تماماً إذ تميل إلى إعماء المؤسسات عما يجري فيها من إعداد وتنظيم (مؤسساتي) لعدم الثقة. وربما كان الإنكار وليس عدم الثقة هو أكبر أعداء الثقة.

وعلى خلاف تلك المفاهيم (الخاطئة) المتنوعة للثقة نريد أن ندافع عن مفهوم الثقة الأصيلة، الثقة التي تعي ذاتها تماماً المدركة لظروفها وحدودها، المفتوحة على إمكانيات جديدة بل لم يسبق تخيلها. المعتمدة على الخيار والمسؤولية أكثر من اعتمادها على العمليات الآلية للتوقع والاتكال واتباع القواعد القاسية. ولا ريب أن الوعود والتعهدات تلعب دوراً مركزياً في الثقة الأصيلة. ومع أننا نميز الثقة عن التبصر فليس معنى ذلك أننا نفكر أن المسلك الأشد حصافة وحذراً في العمل هو عادة مسلك الثقة. إن الثقة الأصيلة ليست مسألة مشاعر ولكنها ظاهرة انفعالية تتضمن مهارات انفعالية. إنها صريحة بل صريحة دون تجمل ولا شيء مغاير لها كالنفاق الودي والإنكار ومظهر الثقة أو الثقة العمياء التي هي بالنسبة للثقة الأصيلة مثل تزييف لرسم أصيل (حتى ولا هي نسخة عن الأصل).

الثقة البسيطة

يكتب توسيديدس واصفاً الانحلال الأخلاقي في أواخر

القرن الخامس قبل الميلاد: «كان كل نوع من الفسق والفجور قائماً على قدم وساق في كل أنحاء اليونان بمناسبة الحروب الأهلية. أما البساطة التي هي السبب الرئيسي للروح الكريمة فقد كانت مثاراً للضحك الساخر وقد توارت. كان المواطنون منقسمين بحدة إلى معسكرات متقابلة وكانت أفكارهم وقد تجردت من الثقة مصفوفة اصطفاف الجنود في المعركة»[38].

كان توسيديدس يصف مأساة ضياع الثقة البسيطة وهي ذلك الموقف الغافل العاطفي الذي نتمنى أن نتخذه نحو رفاقنا المواطنين، والذي نأمل أن نستطيع اتخاذه أمراً مسلماً به مع أصدقائنا وأسرنا. الثقة البسيطة هي نوع الثقة الذي يتخذه معظمنا معظم الوقت نموذجاً له. إنها تتألف بشكل أولي من الثقة الأساسية الثقة الغافلة التي لا تفكر في أماننا الأساسي ولا في اللامبالاة الحميدة إن لم يكن في النزعة الخيرية عند رفاقنا المواطنين في سعيهم إلى احترام حقوقنا وتحقيق حاجاتنا. ولكن جميع هذه الملامح في الثقة الأساسية يمكن أن ترتقي إلى شعور كامل عندما نكون في وضع غريب حرج خطر عندما نكون بعيدين من ظروفنا العادية المريحة. الثقة الأساسية هي أساسية من حيث أنها تبدأ عادة دون تفكير أو تأمل وتوفر توجهاً عاماً نحو العالم. ولكن الثقة البسيطة هي الثقة التي تبقى غافلة

(38) Thucydides, History of the Peloponnesian War, translated by P.Woodruff (Indianapolis: Hackett, 1993), 3-83.

غير مفكرة وغير متأملة إنها ثقة مجردة من أي إحساس بإمكانية عدم الثقة. إنها ثقة تشبه قبولاً لم ينره تفكير. إنها ثقة بسبب إهمال لولا أنها كما يبدو أن الناس يخلطون بينها وبين الثقة الصرف. الثقة البسيطة هي غياب كلي للشك. إنها ثقة لا تطلب تفكيراً ولا خياراً شعورياً، ولا تفحصاً وتدقيقاً ولا تبريراً. إنها قد تحدث لأنه لم يظهر أبداً سبب للسؤال عن جدارة الآخرين بالثقة، ولكن ربما تحدث لأن الشخص الذي يثق هو مجرد شخص ساذج. إنها سذاجة الثقة والغياب الكلي لعدم الثقة هما اللذان يجعلان الثقة البسيطة جد بسيطة.

إن نموذج الثقة البسيطة هو ثقة الأطفال الصغار بالذين يعتنون بهم في البداية[39]. وهذا أيضاً منبع الثقة الأساسية، ولكن الثقة الأساسية هي توجيه فقط، إنها الجوهر النفسي للثقة، التي يتحصل لها التفكير بعد ذلك بعدد ما من الممارسات وردود الفعل الأكثر تكلفاً وتطوراً. ليست الثقة البسيطة على أية حال أكثر من قبول بسيط غير مفكر (غافل).

---

(39) See, For example, Annette C.Baier, "Trust and Antitrust," Ethics 96, no. 10 (1986): 231-60; reprinted in Baier, Moral Prejudices (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1995), 95-129.

تأخذ الكاتبة أحياناً الثقة البسيطة نموذجاً وخاصة الثقة التي يجربها الأطفال الصغار جداً. وهي تقدم هذا الاقتراح لتقاوم به إفراط التوكيد في الفلسفة على العلاقات بين الناضجين وبالغي سن الإدراك المعادلين تقريباً للبالغين. ومع ذلك فهي لا ترفض وجود علاقات ثقة أكثر وضوحاً وأصالة.

ولكن حتى ثقة الوليد ليست بالثقة البسيطة. إن ثقة الوليد تبدو بسيطة لأنها ليست ولا تستطيع أن تكون واضحة ومفكراً فيها وتعابيرها محدودة للغاية. (وهذا هو السبب الذي جعل لورانس بيكر Lawrence Becker يلحّ كثيراً على الطبيعة «غير المدرَكة» للثقة ولكنه بعمله هذا أبعد تقريباً الثقة الواضحة أي الأصيلة من اعتباره)[40]. حتى قبل أن يستطيع الأطفال الصغار الكلام يوضحون تماماً أن ثقتهم ليست مجرد قبول بل يداخلها الخوف والشك، وإن ثقتهم ليست أمراً مفروغاً منه بل يجب أن تُكتسب، في الواقع كل مرة يعاملون فيها. وما أن يصبح لدى الأطفال ضبط عضلي حتى يشرعون بفحص آبائهم كأن يديرون رؤوسهم رافضين ويتلوون ويبكون ويلقون مصاصات الطعام على الأرض (هل يعجب الأهل من هذا؟).

الثقة البسيطة هي الثقة التي تؤخذ أمراً مفروغاً منه، هي التي تمضي دون أن تُتحدى أو تمتحن. إنها ثقة لم يداخلها اضطراب البتة. إنها موقف ادعاء ثقة بسبب الإهمال، وليست قراراً اتخذ عن طريق الرويّة والاعتبارات الخلقية والمثبتة. شخص يثق دون تفكير. شخص «يجد نفسه» واثقاً. وعلى هذا قد تبدو الثقة البسيطة كأنها تفاؤل مركز. (يحار فيلسوف كورنيل

(40) Lawrence C. Becker, "Trust as Non-cognitive Security about Motives", in "A Symposium on Trust", Ethics 107, no. 1 (1996): 43-61.

كارين جونس هل يجب أن ينظر إليها على أنها شكل من عدم الثقة «البسيط» [دون تمحيص][41]. وإذا كانت الثقة البسيطة نوعاً من التفاؤل الساذج فهل يمكن أن يكون عدم الثقة البسيط نوعاً من التشاؤم الساذج؟). ولكن حتى لو كان هناك تفاؤل طفولي فطري فإنه سيبقى قاصراً عن البساطة المفروضة في المولود حسب نظرتنا الرومانسية إلى البراءة. إن الثقة البسيطة هي نوع من الخيال الواهم والبراءة المفترضة في الأطفال مثال عليها. إنها ثقة تؤخذ أمر مفروغ منه غير مضطربة غير ممتحنة غير مفكّر فيها، ثقة كالبراءة التامة ثقة كأنها مثال شفاف بكل معنى الكلمة. ولسوء الطالع، إن مثل هذه الثقة نادراً ما نجدها حتى ولا كمثال. إن المثال الشفاف المفترض يميل لأن يغشي نظرنا لأن الثقة نادراً ما تكون بسيطة بل ربما لا تكون بسيطة على الإطلاق. وفي الغالب تنقلب الثقة البسيطة لتكون راحة زائفة في وضع إذا امتحن ثبت أنه لا يستحق الثقة على الإطلاق.

يقول بعض الناس أن الوثوق ببساطة هو «طبيعة إنسانية». ولكن هذا القول هو لنبذ إمكان التحقيق الجدي. الناس لا يثق أحدهم بالآخر «بشكل طبيعي»، مع أننا نضطر إلى الثقة بالآخرين في البداية نظراً للهشاشة القصوى في الطفولة، ولكن إلى حين. وبافتراض استمرار الهشاشة في الكائنات الإنسانية فإن

---

(41) Jones, "Trust as an Affective Attitude".

بعض مشابه للثقة الطفولية يبقى احتمالاً داخل حياتنا في مرضنا وفي تقدمنا في السن وفي أوقات التغير وفي الكرب وفي «العجز». أحياناً نثق لأنه ليس لدينا خيار، ويتآمر مزيج من الضرورة ومن خداع النفس فيتيح لنا أن نضع مشكلة الثقة خارج فكرنا، ونقبل ما لا نستطيع تحديه أو تغييره. إن الناس الملزمين بنشاطات ماهرة تتطلب الانتباه (أو أولئك المسترخين الذين يحاولون أن يضعوا كل الهموم «خارج الفكر»)، يدفعون أيضاً مشاكل الثقة إلى المساحة الخلفية من حياتهم رافضين التفكير فيها، مدعين ببساطة أنهم لا وقت لديهم ولا رغبة لا في التأسيس ولا في إيجاد الحلول. إن توجيه الانتباه إلى الثقة والسماح للأفكار التي تؤدي إلى عدم الثقة قد يكون مشوشاً ومزعجاً. ومفهوم تماماً أننا نفضل ألا نستضيف هذه الأفكار، وهذا يفضي فنمنولوجياً (ظاهراتياً) إلى ثقة بسيطة بشكل سذاجة. ولكن الثقة البسيطة عادة هي مجرد عدم انتباه، أخذ بشكل مفروغ منه، عماية عن الآليات (الديناميكيات) التي تشكل أساس تفاعلاتنا. ووفقاً لذلك نميل إلى التفكير في الثقة البسيطة على أنها إمكان مستمر ليس فقط للأطفال الصغار والحيوانات والأقوام «البدائية» بل للبالغين أيضاً.

الثقة البسيطة كالبراءة لا يمكن أن تسترد إذا ضاعت. وإذا تجلّت كمثال تبدو هدية ثمينة ولكنها غير مغرية ويمكن أن تُسلب بسهولة. قد يكون صحيحاً أننا لا نستطيع أبداً أن نسترد

براءتنا ولكنه خطأ مأساوي أن نعتبر الثقة البسيطة مثالاً للثقة ونفترض أن ضياع الثقة البسيطة هو في حد ذاته مأساة أو كارثة. إن ضياع الثقة البسيطة وانتهاء الشفافية الساذجة هي دعوة إلى التفكير والفهم، إنها بدايات الحكمة. الثقة البسيطة ليست ثقة «حقيقية» بأكثر مما يكون الحب الأول حباً حقيقياً (وكلاهما متساويان في السذاجة)، إنه لأمر رائع إذا وجدنا أنفسنا واثقين حقاً في ظروف تعوق ثقتنا، ولكن الثقة الوحيدة التي تواجه الشكوك والمآزق، الثقة التي تقف في عالم الارتياب هي الثقة الأصيلة. قد نجد أنفسنا ببساطة واثقين، ولكننا بالضرورة نختار ونمارس شعورياً الثقة الأصيلة. يمكننا أيضاً أن نختار الثقة البسيطة (بالإضافة إلى خداع النفس أو «العماية» المقصودة بهدف تبسيط أمور حياتنا. ولكن خلط هذا الشكل من تشويش النفس مع طبيعة الثقة في حد ذاتها وخلط الملاءمة مع الاقتناع الراسخ معناه عدم فهم مرامي الثقة.

ليست الثقة البسيطة معينة معلومة إلى حد أن تؤخذ أمراً مفروغاً منه، إنها تبقى مهملة لا يُلتفت إليها في خلفية نشاطاتنا. إنها غير مفتّدة لا لأنه ليس هناك فيها ما يُستفسر عنه ولكن لأنها تسير مهملة. إننا أحياناً لا ندرك أننا كنا نثق بشخص ما إلى أن يخون ثقتنا، وحينئذ نفاجأ بأمرين نقض عهده وكوننا أولياه ثقتنا في البداية دون تفكير. ولكن من الخطأ أن نتخذ مثل هذه الثقة البسيطة مثالاً أو نموذجاً للثقة. إنها مرغوب فيها تلك الثقة

البسيطة «هناك» (وسيطاً أو خلفية أو صمغاً أو جواً)، تلك الثقة التي يمكن أخذها أمراً مفروغاً منه، الثقة التي لا تحتاج إلى تفسير أو روية. إنها مرغوب فيها مثلها في ذلك مثل البراءة المرغوب فيها رائعة في الطفولة وفي عالم غير مضطرب ولكنها غير مناسبة لهذا العالم.إنه لأمر جيد أن نحاول تأسيس الثقة عند الأطفال الصغار وعند الأولاد بإعطائهم لب الثقة الأساسية وبدايات موقف متفائل رائق تجاه العالم، ويمكن فهم أننا نجعل هذه الثقة رومانتكية عند الأطفال السعداء بإضفاء البساطة عليها. ولكن بالنسبة للبالغين نادراً ما تكون الثقة بسيطة جداً. إنها دائماً تساورها الشكوك والمخاوف. من الصعوبة بمكان أن نكون مواطنين في هذا العالم ونثق ببساطة (مع أننا كمسألة مبدأ نلح على أننا «ينبغي أن نثق بالناس») ولكن ما أن نتخلى عن خيال الثقة البسيطة، وما أن يكون علينا مواجهة ارتيابات لا يمكن تجنبها في الحياة حتى يبرز السؤال كيف نمارس الثقة الأصيلة؟

إن التخلي عن الثقة البسيطة لا يعني القفز إلى النهاية المقابلة أي الإلحاح على أن كل ثقة ينبغي أن تكون واضحة صريحة مدققة ومعززة بالأحكام والقوانين أو بآليات الإلزام. ما أن تكون الثقة البسيطة واضحة حتى يمكن فحصها ووصفها وتحديها. يمكنها أن تتحول إلى اتفاقات بينة صريحة وأن تصاغ في عقود. ولكن العقود وأمثالها ليست مثل الثقة نفسها. إن الاتفاقات والعقود قد تبدو أنها تعزّز الثقة، ولكن هذا أمر

مضلل. وأكثر دقة القول أنها غالباً تحل محل الثقة، ذلك أنها توضح بتعابير لا لبس فيها وبشكل صريح إمكانيات الخيانة (والعقوبات التي تترتب عليها)، وبكونها كذلك فإنها تمثل طباق أطروحة الثقة البسيطة أي نقيضها. ومن الخطأ الظن أيضاً أن مثل هذه الاتفاقات والعقود تسبق أو تؤسس الثقة (يمكن أن يكون هناك اتفاقات وعقود في غياب كامل للثقة وتتم نموذجياً بتطوير آليات الإلزام)[42]. ولكن دمج الثقة الأصيلة بالثقة الواضحة هو خطأ بالدرجة نفسها التي يكون عليه دمج كل ثقة بالثقة البسيطة (غير الواضحة). إن حياتنا الانفعالية في علاقات الثقة أكثر اشتباكاً وتعقيداً إنسانياً مما يمكن أن تتيحه إما العقود واستراتيجيات التفاعلات المدركة، وإما «الأمان غير المدرك حول الدوافع»[43]. الثقة البسيطة التي هي نوع الثقة المشهور في رعاية الكلاب ليست مثالاً يحتذى كما أنه ليس مثالاً يحتذى عقد صارم يجول في خيال المحامي.

---

(42) يبدو هذا النموذج الارتيابي عند رسل هاردن Russell Hardin's يتحدث هاردن حديثاً شاملاً حول: «مكائد التعهد» والتي تبدو لنا مثلاً أنها تساوي بدائل التعهد أو مجرد رفض لما نعنيه بكلمة «تعهد» بمجملها. انظر رسل هاردن " Russell Hardin-جدارة الثقة» في «ندوة حول الثقة».

See Russell Hardin, "Trustworthiness", in "A Symposium on Trust", Ethics 107, no. 1 (1996) 26-42.

(43) Becker, "Trust as Non-cognitive Security about Motives".

الثقة العمياء

ليست الثقة العمياء الثقة البسيطة ذاتها. فالثقة العمياء لم تعد بريئة. لقد تعرضت للانتهاك والخيانة. قُدّم لها الدليل على عدم الثقة ولكنها لم ترفض ذلك الدليل فقط بل أنكرته. الثقة العمياء هي الإنكار. إنها في جوهرها خداع النفس. قد تكون في غاية الغباء (مع أنها لا تحتاج أن تكون كذلك). تذكر اميلي رورتي Amelie Rorty قصة طبيبة كانت تعرف جميع أعراض سرطان الرحم المتقدم وإنذاره، وكانت هي نفسها مصابة دون أي مجال للالتباس بسرطان آخر العمر (الختامي) هذا، إلا أنها كانت تنكر مأزقها لكي تستمر في ممارسة عملها في مساعدة المرضى أطول فترة ممكنة. نظن ما من امرئ يسمي مثل هذا الإنكار الخادع للنفس «غباء»[44]. الثقة العمياء تعمل غالباً بشكل جيد، فتبسّط حياتنا عندما لا تعود الثقة البسيطة خياراً، وتساعدنا على أن نلازم برنامجاً قيّماً ذلك أن التأمل والتفكير الأكثر حدة يدعونا إلى الشك. الثقة البسيطة هي حقاً بسيطة. والمرء الذي يثق ثقة بسيطة لا يتصور البديل ولا إمكانيات الخيانة ولا الدوافع لعدم الثقة. والأمر على نقيض ذلك في الثقة العمياء فإن المرء ينكر الدليل الواضح. في الثقة العمياء المرء

---

(44) The example is borrowed from Amélie Oksenberg Rorty, "User-Friendly Self-Deception", in Self and Deception, editied by Roger Ames and W.Dissanayake (Albany: State University of New York Press, 1996).

يرى ولكنه يرفض أن يرى. إنه لا يسأل وإذا سأل لا يصغي. وكثيراً ما تختلط الثقة الصرف بالثقة العمياء (مثلما يشبه الولاء الصرف بسهولة الولاء الأعمى)[45]. والثقة الصرف تتخذ لاستبعاد النقد والتدقيق والاعتبار «الموضوعي» للدليل. إذا كانت كلمة «موضوعي» تعني «عدم التحيز» فذلك صحيح. أن يثق الإنسان معناه أن يكون ملتزماً متعهداً أي أن يكون منحازاً. ولكن الثقة حينئذ تكون لا عمياء ولا بسيطة.

إن الثقة الأصيلة منفتحة للدليل ولإمكانيات الخيانة. ولكن الثقة العمياء ليست منفتحة للدليل على الإطلاق. إنها محكمة الإغلاق تجاه أي إمكان لحدوث شيء يهز الثقة أو يخونها، وهكذا فإن واحداً من مكونات الثقة العمياء هو عنصر خداع النفس أو على الأقل إرادة خداع النفس. قد يكون الشخص الموثوق أهلاً للثقة ولا يوجد أي دليل على عكس ذلك، ولكن أن يثق الإنسان ثقة أصيلة هو أن يكون مستعداً ليتعامل مع مثل هذا الدليل. ولكن أن يثق الإنسان ثقة عمياء هو أن يكون مستعداً لمثل هذا الدليل مع إرادة جاهزة لرفضه وإنكاره، وإرادة في أن يكون مخدوعاً أو يخدع نفسه. إن الثقة العمياء تُنتقد بحق لا لأنها ثقة ولا حتى لأنها عمياء (إن كانت عمياء فلا يوجد شيء مقلق بشكل خاص تراه). إن الثقة العمياء تُنتقد بحق لأنها

---

(45) Gorge P. Fletcher, Loyalty (New York: Oxford University Press, (1993).

تخدع نفسها إرادياً، لأنها ترفض، أو ترغب بأن ترفض أخذ الدليل بعين الاعتبار، ولأنها تشارك (أو تريد أن تشارك) في جرم عدم جدارة الثقة بل حتى في الخيانة ولأنها قد تكون خطرة بناء على ذلك.

نستطيع أن نفهم إلى أي مدى من السهولة تختلط الثقة بالثقة العمياء. تختلط الثقة أولاً بالثقة البسيطة، وهي ثقة ضعيفة التمييز ومنجزة من غير اعتراض. وعندما تواجه الثقة البسيطة الدليل على أن شخصاً ما لا يجوز الوثوق به يكون رد فعلها الطبيعي الإنكار. ولكن حتى الثقة الأصيلة تميل إلى عرقلة دليل من هذا النوع فيظهر في البداية كأن الثقة بطبيعتها الحقيقية عنيدة متصلبة مخاصمة مضادة للدليل ومعززة لذاتها بشدة. والفروق بين الثقة الأصيلة والثقة العمياء هي أن الثقة الأصيلة ليست ساذجة ولا هدّامة لذاتها وإنها إذ «تعوق» فهي في سبيلها إلى طلب الحل والالتزام وترسيخ الأولويات لا بالعمى المتعمد. وبينما تعوق الثقة العمياء الدليل فإن الثقة الأصيلة تعانقه، تتشربه وبذلك تجعل تأثيره محايداً كدليل على عدم الثقة. ربة عمل لديها شكوك جدية حول كفاءة موظف جديد عندها ولكنها تريد أن «تعطيه فرصة» فتقرر وهي بكامل شعورها أن تغفر أخطاءه. يمكن للمرء أن يقول أن الثقة الأصيلة تضع دليلاً ما خارج اللعبة دون أن تضعه خارج نطاق نظرها في حين أن الثقة العمياء ترفض النظر تماماً. يوجد هنا مسألة «حكمة» لا مجرد مشاكل تتصل بالمعرفة والاحتمالات.

الثقة الأصيلة تحمل معها معرفة إمكانية عدم الثقة. على خلاف الثقة العمياء التي ترفض الاعتراف بهذه الإمكانية. ينبغي ألا تندمج الثقة بالثقة المطلقة غير المشروطة ولكن هذا تماماً ما تتطلبه الثقة العمياء من ذاتها. ولهذا السبب يعتبرها بعض الناس أصح أو «أصدق» ثقة. يميل خطأ القادة العسكريون ورؤساء الشركات خاصة إلى تقريظ الثقة العمياء على أنها الثقة الوحيدة ذات القيمة. الثقة الحقيقية الصادقة حسب رأيهم ينبغي أن تكون مطلقة، إلا أن هذا يتضمن سوء فهم خطير. يمكن أن تكون الثقة متبصرة وموزونة وتأملية ومشروطة وتبقى مع ذلك ثقة أصيلة وليست عمياء. إن جزءاً من المشكلة مع الثقة ان كثيراً من الناس يرفضون أن تُعتبر ثقة أية ثقة متبصرة موزونة مشروطة. ونحن نقترح خلاف ذلك، إن الثقة العمياء ليست في الواقع ثقة على الإطلاق. ففي السياق الديني يرجح أن تسمى إيماناً ولكن في السياقات الدنيوية يفضل أن يقال إنها والغباء أمر واحد. إن خلط الثقة مع مثل هذا القبول غير الممحص والإنكار العنيد لكل دليل معاكس محتمل للثقة معناه أعمق سوء فهم للثقة. ومساواة الثقة الأصيلة بالثقة العمياء تؤدي إلى استنتاج أنه من غير الحكمة أبداً أن نثق. تصبح الثقة رذيلة بدل أن تكون فضيلة وعائقاً بدل أن تكون قوة.

أول فضيلة للثقة الأصيلة أنها مصطفاة مختارة، وأنها تحافظ على تلك الثقة بجهد هام معتبر. والثقة العمياء أيضاً

محافظ عليها بجهد هام معتبر، ولكنها بدلاً من الانفتاح تنتهي إلى الإنغلاق وإلى موقف الدفاع. إن ابعاد الدليل ليس في حد ذاته غباء ولا تعقلاً. في بعض السياقات الدينية مثلاً قد يصرّ المؤمنون أن «العمى» في التعهد أي «قفزة الإيمان» هي أعظم فضيلة (يحضر إلى الذهن كيير كغارد فوعده العاطفي المشبوب في طبيعته هو «قفزة» في وجه الارتياب الموضوعي) قد يجادل بعض الناس بأنه في العلاقات الرومانتيكية وفي الزيجات لا يكون رفض اعتبار الدليل علامة على الغباء ولكنه سمة نموذجية للحب ذاته. إذ يجد المحب حبيبه جميلاً ولطيفاً بالرغم من جميع الأدلة «الموضوعية» التي تثبت خلاف ذلك. ولكن الحب قد يكون أعمى ليس أمام الهنات والعيوب الموضوعية وحسب بل أمام أخطار حقيقية أيضاً. يمكن أن نرجئ مفهوم العمى وحكمنا إذا كانت الثقة عمياء أو الحب أعمى إلى تلك الحالات التي يكون فيها رفض الاعتراف بالدليل خطراً أو غبياً. مثل ذلك مثل امرأة تعيش زواجاً سعيداً في بعض الجوانب، ترفض أن تأخذ بالاعتبار احتمال أن زوجها غير مخلص لها بالرغم من دليل عريض غير مستتر في هذا الخصوص. في نظرها أنها تأخذ جميع الأمور بعين الاعتبار وربما كان هذا قراراً حكيماً منها[46].

عندما يدان أحد أعضاء الأسرة بجريمة نكراء ينشأ ميل

---

(46) في فلم «شيء واحد صحيح» تقبل الزوجة (وتلعب الدور ميريل ستريب Meryl Streep) مثل هذه التسوية حلاً وسطاً في حياتها مدركة أن حياتها =

يمكن فهمه إلى الثقة بالقرابة وعدم الثقة بالدليل. ولا يعد رفض هجر الثقة هنا تآمراً إجرامياً بل ولاءً أسرياً. قد يقول المرء إن الفرق بين الثقة الأصيلة والثقة العمياء هو عند هذه النقطة حين يصبح الدليل قاهراً. وما دام هناك ارتياب حقيقي فإن الإصرار على إيلاء الثقة رغم الدليل يظل أمراً مبرراً. ولكن ما أن يصبح الدليل متعذراً نكرانه موضوعياً حتى لا تعود الثقة العمياء فضيلة (ونضرب مثلاً على ذلك أخ تيودور كازنسكي(*) الذي كان

= مع زوجها وابنتها بعيدة جداً من أن تلجأ فيها إلى البدائل، ولم تفش السر لأنها تعرف أن إظهار اتهامها أو حتى التعبير عن عدم سعادتها يعرض الزواج للخطر. في آخر الفلم فقط حين تلح ابنتها وتحقق معها تكشف أنها كانت تعرف كل شيء طوال الوقت.

(*) تيودور كازنسكي: شخص عانى في طفولته من مرض أُبعد فيه عن أهله. قال عنه جيرانه كان طفلاً رائعاً ولكنه غير مؤهل اجتماعياً كان رجلاً كبيراً قبل أن يكبر. تخرج من إحدى الثانويات عن عمر يناهز 16 سنة ونال من هارفرد إجازة الباشلار سنة 1962 ودكتوراه في الرياضيات من جامعة ميشغان. كان الأساتذة يسمونه العبقري لأنه لا يعجز عن حل أصعب المعادلات ولكنه كان متوحداً اجتماعياً. عمل أستاذاً في جامعة بركلي لسنتين ثم استقال دون سبب قال أني سأترك الرياضيات ولا أعرف ماذا سأفعل. انتحر أبوه. وأمه كانت تعيش في نيويورك. اشترى له أخوه قطعة أرض في مونتانا بنى فيها كوخاً بدون كهرباء ولا ماء وكان خجولاً لطيفاً مع جيرانه وكان يشتري خشباً للتدفئة، ويصطاد الغزلان ويتجول بالدراجة ويكتب مقالات في بعض الصحف. كان أخوه يرعاه حتى تزوج. قالت جارة له أنه كان بريء المظهر لا يمكن الشك فيه أبداً وذلك بعد أن تبين أنه هو الشخص الذي فجر 16 قنبلة من صنعه في أرجاء الولايات المتحدة. واتهم واحتجز ثم اعتبر مريضاً عقلياً. ـ المعربة .

يحميه ويدافع عنه فقد أسقط في يده في النهاية لأن التشابه لم يعد بالإمكان نكرانه بين تبجح أخيه المألوف وبين الشخص الذي كان يلقي القنابل كيفما اتفق. من وجهة نظر الشخص المعني ليست المسألة متى يصبح الدليل متعذراً إنكاره موضوعياً، ولكن المسألة هي طبيعة العلاقة وقيمتها. لقد أبلغ أخو كازنسكي الشرطة لا لأنه توقف عن تثمين العلاقة ولكن بالأحرى لأن كازنسكي نفسه غيّر العلاقة بشكل راسخ لا رجعة فيه إلى علاقة يعبَّر فيها عن الحب الأخوي بأحسن تعبير في إنقاذ حياته وجلب العلاج الذي كان يحتاجه على نحو واضح.

ينبغي أن نشير إلى أن العناد والعمى عن الدليل البديل وهما سمتان بارزتان للثقة العمياء ليسا غير مألوفين في الانفعالات القوية على العموم. ومما هو جدير بالذكر أن الغضب له عناده الخاص وعماه المتصلب ـ وهذا صحيح حتى لنسمي الغضب الشديد «غضباً أعمى» يمكن طرح جدال في أن الغضب يطلق نوعاً من سيناريو قاعة محكمة تشد فيه جهةُ الادعاء كل الانتباه تقريباً والنتيجة محددة منذ البداية[47]. مثلما

(47) حلل روبرت سي سولومون Robert C.Solomon المحكمة التي تدعى «محكمة الكانغارو» (وهي محكمة مضحكة تهمل فيها مبادئ الحقوق والعدالة وتصدر أحكاماً غير نظامية وعقوبات خارجة عن الأحكام الشرعية) ورد ذلك في سيناريو وضعه في مؤلفه The Passions (Indianapolis: Hackett, 1993).

جرى عليه الأمر في محكمة الملكة الحمراء Red Queen's Court(*) ذلك أنه بسبب هذه المقاومة ورفض الدليل أو النظرة غير المتحيزة يوصف الغضب بأنه «لا عقلاني»، ولكن من المهم أن نقدر فقط كم يتضمن مثل هذا الانفعال من العقلانية وكم بالمثل تتضمن الثقة العمياء منها. ليست الثقة العمياء بلا هدف. إنها كالغضب موجهة بشدة. وعلى خلاف التفكير المشوش المتضارب فإن هذه الانفعالات مثل الغضب والثقة العمياء تتحد بأهدافها بشكل ملحوظ حتى أن الإنسان لا يكون مخطئاً إذا اعتبرها كما فعل سارتر في مؤلف مبكر له، استراتيجيات(48).

هذا خطأ كبير وقع فيه لورنس بيكر Lawrence Becker حين أقر إحداث صراع زائف بين (الاستراتيجيات العقلية والمواقف غير العقلية)(49). فالانفعالات هي مماثلة للاستراتيجيات حتى لو أنها غير واضحة المعالم وغير مدروسة بتأمل. يمكن لمثل هذه الاستراتيجيات أن تكون واضحة وتستنهض التروي الشامل ولكن من الخطأ الظن أننا بذلك نجلبها إلى عالم العقلانية المحض

(*) إشارة إلى القصة الشهيرة «أليس في بلاد العجائب» وفيها رمز إلى أمر غير منطقي وغريب ومخيف.

(48) Jean-Paul Sartre, The Emotions, translated by B.Frechtman (New York: Citadel, 1948).

(49) Becker, "Trust as Non-cognitive Security about Motives".

فهي بذلك لا تغدو انفعالات. الثقة العمياء (كالبارانويا، التي هي قطبها المقابل) يمكن أن تكون واضحة بشكل مؤثر (يدعو للإعجاب) ومتماسكة بشكل ملحوظ وفي بعض المناسبات مقنعة. ولكن الذي تفعله ـ كما تفعل بقية الانفعالات ـ هو أنها تحبسنا في نظرة خاصة ضمن حدود معينة تماماً، نظرة تُقصي جميع البينات المضادة المناسبة. بعض أوضح الاستراتيجيات هي التعبير عن أشد الانفعالات ـ مثلاً في حالتي الغيظ الساخر والسخط الأخلاقي. (ربما ينبغي لنا أن نشير إلى أن هذين الانفعالين يسودان خاصة بعد صدمة الثقة العمياء بالخيانة).

الثقة والاتكال، آلية الثقة

غالباً ما نتحدث عن ثقتنا بأشياء غير حية: الثقة بسيارة تقلع في صباح بارد. الثقة بجسر يستطيع أن يتحمل وزن مركبة شحن كبيرة. نتكلم أيضاً بنفس الطريقة وبشكل لا تمييز فيه على «حبي لسيارتي» أو «حب البيتزا» وهي مواقف انفعالية نسلّم أنها تختلف عن حبنا لشخص. ولكن لقول الحق فإن الثقة محصورة بعملاء بكائنات (هي عادة أناس أو مؤسسات إنسانية) يكون لديها خيار، وتتخذ قرارات ويكون لها مواقف ومعتقدات ورغبات، وهي تستجيب لأعمالنا وحركاتنا بمشاعر وأعمال وحركات مقابلة.

من جهة أخرى إن ثقة المرء بالأرض تحت أقدامه هي ثقة

من نظم مختلفة. إن صلابة الأرض وثقتنا بخطونا عليها إن هما إلا مجازان بشكل نموذجي يفيدان إمكان الاتكال المطلق (معظم شركات التأمين تعلن عن نفسها بأنها «صلبة كالصخر»). كل من مر بتجربة زلزال ولو كان زلزالاً بسيطاً يعرف بأية سرعة يتبعثر فيها الاطمئنان والثقة، وأي أثر نفسي مخرب يمكن أن يتبع ذلك الحدث لأسابيع أو لشهور بل لسنين. إن الفلاسفة على صواب حين يتحدثون عن «قاع» (أي مستند) لمفهوم أو لحجة يكون صلباً بكل معنى الكلمة وأساساً لا يرقى إليه الشك. إن التلميح يعني أن الإنسان يستطيع أن يثق بصلابة الأرض التي يمشي عليها ـ إنه افتراض سابق غير مُتوقع كلما قمنا بحركة فعلية ـ كما يستطيع أن يثق على نحو مشابه بمفهوم متين أو بحجة دامغة. ولكن لتبسيط الأمر نقول أن الثقة التي لدينا بالأرض هي ثقة غير متبادلة. إن الأرض لا تعلم أننا نعتمد عليها ولا تهتم بشكل أو بآخر. إنها لا تعترف بثقتنا إنها لا تهتم بثقتنا. لا ينتابها قلق حول خيانة ثقتنا. (مع أنها في الزلزال تؤذي بقسوة إيماننا واطمئناننا إليها).

من المهم أن تُميز الثقة من الاتكال (إمكان الاتكال، إمكان الاعتماد، الاعتداد والاطمئنان). إننا غالباً نستعمل تعبيري الثقة والاتكال بالتناوب واحدهما بدل الآخر. نتحدث عن الثقة بالسيارة بأنها تنطلق، ونتحدث عن اتكالنا على أصدقائنا. ليس في نيتنا هنا أن نفرض ثباتاً لا معنى له على اللغة العادية ولكن

نريد أن نرسم بالتفصيل تمييزاً في المعنى له أهمية بالغة في فهم الثقة. إن مساواة الثقة بإمكان التوقع هو خطأ لأننا نتعامل مع أناس في علاقات متبادلة حية نابضة (دينامية) لا مع ظاهرة متواترة يحكمها بعض الشيء انتظام واضح مبرم. مهما توقعنا من الأرض فإن الأرض لا تتوقع شيئاً منا في المقابل إنها لا تعلم شيئاً عن آمالنا وتوقعاتنا إنها لا تكترث بها مطلقاً. أطلق (الفيلسوف) البيركامو في كتابيه: «الغريب» و «أسطورة سيزيف» على ذلك تعبير «الكون اللامبالي» (بالفرنسية: اللامبالاة الرؤوم للعالم) La tendre indifference du monde. يمكننا على نحو مماثل أن نميز بين الثقة والاتكال باتباع رأي كامو فنشير إلى أن الحديث عن الثقة مناسب فقط حين يكون الموضوع «ذا مبالاة» في أعمق معنى لهذه الكلمة. (على أية حال ينبغي ألا نبعد عن أذهاننا باستخفاف تشخيصات الأرض كما تبدت في كلمة جايا Gaia(*) لقد أصبحت هذه التشخيصات ذات أهمية لأنها توحي بشيء من علاقة الثقة المتبادلة(50).

(*) جايا هي الأرض في الأسطورة اليونانية وهي عنصر سابق انطلقت منه الأجناس الإلهية. إنها أم الآلهة والأم الكلية ـ المعرّبة ـ.

(50) جايا Gaia مثال علمي حديث نسبياً في تاريخ طويل متعدد الثقافات عن مفاهيم «أرواحية» (مذهب حيوية المادة: الاعتقاد بأن كل ما في الكون حتى الكون نفسه لها أرواح) حول المادة والأرض. ففي اليونان القديم (وكلمة جايا مستعارة منها) وفي ماوري Maori وثقافات جنوب الباسفيك الأخرى، وفي معتقدات الهنود الأمريكان وفي الكثير من الثقافات =

نحن نتحدث عن متانة العارضة المتعارضة في البناء، أو على دقة مقياس الضغط الجوي، أو عن سطوة الطب ونفوذه، أو عن إمكان الاعتماد على إصلاح عطب السيارة مرتين قبل اللجوء إلى استبدال المكابح. في مثل هذه الحالات نحن نتحدث بالأصح حول إمكان الاعتماد وإمكان التوقع أو الاطمئنان. ولا يتضمن هذا تبادلاً، ولا وساطة أو مسألة خيار حر. [إن المكابح لا تختار أن تتوقف عن العمل ولا تعاقبنا لأننا لم نتفحصها بانتظام]. يوجد في كل حالة من الحالات المذكورة آنفاً أناس خلف المشاهد يصممون البنية يعايرون الأداة، ينتجون الطب، يصلحون السيارة. وهذا يثير مرة ثانية مسألة التبادل والثقة بالمعنى الشخصي. ولكن الثقة إذا فهمت بدقة فإنها وظيفة تفاعل إنساني. يوجد ثقة بين الحيوانات ولكن فقط حين تعرض سمات تفاعل وتواصل وتبادل. تعرض الكلاب والذئاب سلوكاً وثوقياً وغير وثوقي أما النمل والنحل فلا تفعل ذلك (إلى الحد الذي نستطيع تبينه). وهكذا فإن الوثوق بكلاب غريبة قد يكون مسألة معرفة أو غباء، ولكن الإنسان لا يثق بالنحل وبباقي الحشرات ولا يحجب ثقته عنها. قد يخاف الإنسان منها أو ينتابه الغضب عليها (مثلاً إذا لدغته أو لسعته) ولكنه لا يثق بها ولا

= الآسيوية انتشر مفهوم شخصانية الأرض ودام طويلاً (وفي الواقع إن مفهوم «العالم اللامبالي» هو الذي ينبغي أن يثير فضول الانثروبولوجيين واهتمامهم).

يحجب الثقة عنها. إنه يتعلم أن يتوقع سلوكها لا أكثر.

لا ريب أننا غالباً نتوقع ما سوف يفعله الناس ولكن ـ وهذه نقطة جوهرية ـ ليست الثقة هي نفس إمكان التوقع ومن دون عدم إمكان التوقع ليس هناك دور للثقة. نحن نحدد توقعاً ولذلك نترقب ظهور ساعي البريد قادماً في الساعة الثالثة بعد الظهر لأنه (وربما ليس لدينا دليل آخر) كان يصل حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كل يوم في السنتين الأخيرتين. ولكن ربما يكون سوء فهم للثقة وإساءة وظلم لسعاة البريد أن نعتبر سلوكهم المنتظم ممكن التوقع وحسب فضلاً عن أن يكون وظيفة آلية.

نحن نثق أن سعاة البريد سيلوحون حاملين بريدنا لأننا ندرك أنهم كائنات إنسانية مسؤولة يقومون بدور تقتضيه بعض الالتزامات («سواء في الثلج وفي المطر وفي الحر ...»)[51] بتدبير التسليم وفق خطة معقولة حوالي الثالثة بعد الظهر. نحن مدركون تماماً أن ساعي البريد قد يقرر أن يترك عمله، أو يغير طريقه أو يفرّ ومعه البريد ولكن كل هذا مختلف عن تحطم الآلية. (لقد أشير إلى أن المشاكل الأخلاقية الرديئة السمعة في البريد سببها زيادة الآلية وتوقعات الإنجاز هناك. إن الكائنات الإنسانية ليست آلات وإنهم ليستاؤون إذا عوملوا كالآلات). قد

(51) هذا المثل المأثور مأخوذ من هيرودوت (الشكر لسينثيا ريد Cynthia Read).

يكون توقع سعاة البريد ممكناً ولكن ذلك لأننا نثق بهم. ولا نثق بهم لمجرد أنه بالإمكان توقعهم.

في قصة روم بانش Rum Punch لالمور ليونارد Elmore Leonard يذكر شخصاً ذا خلق رديء يقول لشخص آخر في الرواية: «لا ينبغي لي أن أثق بميلاني إنني أعرفها»[52]. هنا يسلّط الضوء على الفرق الواضح بين الثقة وإمكان التوقع للإصرار على: أن إمكان التوقع يتطلب درجة عالية من الاحتمال بل نوعاً من اليقين (النفسي). في حين تتطلب الثقة أمراً آخر: تتطلب علاقة متبادلة تأخذ مسائل الاحتمال فيها المقعد الخلفي، وراء مسائل التوقعات المتبادلة وردود الفعل والتعهدات. إن الإعراب عن الثقة بعبارات إمكان التوقع هو إغفال لمظهر الثقة الجوهري الذي هو عنصر التبادل[53]. يكون إمكان التوقع فيما نسميه اتكالاً أمراً حاسماً (ربما لأنه يتحد بمقدار من الضبط). ويظل على الإنسان أن يتخذ قرارات إذا كان عليه أن يتكل أو لا يتكل على شيء ما، واضعاً نصب عينيه إمكان أو احتمال الإخفاق أو الخيبة. ولكن ما هو غير موجود في الاتكال وهو حاسم في الثقة (وفي عدم الثقة) أن

---

(52) Elmore Leonard, Rum Punch (New York: Delacorte, 1982). This novel was made into a film, Jackie Brown, by Quentin Tarantino, with Samuel L.Jackson and Bridget Fonda in the relevant roles of Odell and Melanie.

(53) See, e.g., Hardin, "Trustworthiness".

الإنسان الموثوق له نيات ودوافع، ويتخذ قراراته الخاصة بنفسه مع النظر أو دون النظر إلى قرار الشخص الآخر الذي أولاه الثقة.

الثقة والاتكال كلاهما يتضمنان أملاً في إمكان التوقع، وهما أيضاً متشابهان من حيث أن اعتدادنا واطمئناننا دائماً يبزّ معرفتنا. الثقة والاتكال يتضمنان دائماً بعض المخاطرة، واحتمالات نتيجة مرضية مواتية (أمر أقل من مؤكد). وقد يبدو المسوّغ العقلي للثقة والاتكال غير كافيين لتبرير المخاطرة[54]. بتعبير آخر يوجد «قفزة عاطفية» متضمنة في جميع حالات الثقة والاتكال، وهي السؤال لم لا تكون الثقة والاتكال مجرد ظاهرتين للإيمان وحسب. لا يتضمن الرهان في حلبة السباق ـ مع معرفة مفصلة بالأرجحيات أو بدونها ـ ثقة ولا اتكالاً إلا في الأمور الهامشية ـ مثلاً أن السياق لم يُعدّ بعد، إن الحصان مريض، إن الدعائم في المنصة لن تنهار تحت أقدام المشاهدين المتحمسين في كلا الثقة والاتكال، وهما غير متشابهين في معظم محاولاتهما المنفصلة لتوقع المستقبل (وأياً كان حجم الرهان)، يوجد دائماً عامل «غير عقلي» «شيء أكثر» لا يعتمد على الترجيح والاحتمال فقط.

---

(54) تتضح الصيغة الأكثر درامية لهذا القصور الأخلاقي بأفضل شكل في مثال كلاسيكي يدعى رهان باسكال. جادل بليز باسكال Blaise Pascal أن ثمن عدم الإيمان بالله (والذهاب بالتالي إلى اللعنة الأبدية) يطمس أي مسوغ عقلي لأخذ مثل هذه المخاطرة.

هُناك مثل فلسفي متطرف عن هذا «الشيء الأكثر» نجده واضحاً جلياً في أفكار ديفيد هيوم الفيلسوف الاسكوتلندي. وهو حول صعوبة تسويغ بعض توقعات المستقبل التي تبدو في الظاهر الأكثر يقينية ـ مثلاً ثقتنا أن الشمس سوف تشرق غداً ـ إن ما فعله هيوم خاصة لفلسفة الثقة هو أنه نبّه بطريقة جدالية عنيفة أن أكثر معتقدات الجوهرية ليس لها قاع عقلي، مع أنها هي التي ينبغي أن نتكل عليها في ادعاء كل معرفة أياً كانت. إذا لم يكن باستطاعتنا أن نكون مطمئنين إلى أن المستقبل سيكون كالماضي، وإذا لم يكن باستطاعتنا أن نتكل على ما نعتقد أنها قوانين الطبيعة وأنها النتائج المستخلصة من تجربتنا السابقة حتى بتعابير الاحتمالات كيف لنا إذن أن ندعي أننا نعرف أي شيء في هذا العالم؟

ومع ذلك فإن هيوم قد أبعد عنا اعتدادنا واطمئناننا بيد وقوّاه باليد الأخرى. فربما لا نستطيع أن نثبت أن أكثر ادعاءاتنا الأساسية في إدراكنا هي سليمة لا عيب فيها. إلا أننا نستطيع أن نثق بالطبيعة التي وهبت لنا المعتقدات والعادات المناسبة. «لذلك كل الاستدلالات من التجربة هي نتيجة العادة لا التفكير»[55] قد لا نكون قادرين على البرهان فلسفياً أو عقلياً

(55) David Hume, A Treatise of Human Nature, edited by L.A. Selbebigge, 2d ed. (Oxford: Oxford University Press, 1888), 269.

على اعتدادنا واطمئناننا بالمسوغ أو السبب ولكن خارج الشك الفلسفي هناك ما سماه هيوم «عواطفنا» التي تنبع بشكل «طبيعي» لتعطينا ذلك الاطمئنان. وغالباً ما تكفي الثقة البسيطة حيث يقدم التفكير طيفاً مربكاً من الشكوك. ومع ذلك فإن ما يطلعنا هيوم عليه بوضوح تام هو الدعم العقلي المشكوك فيه لثقتنا واتكالنا العاديين، هو تحذير لأولئك الفلاسفة الذين يريدون أن يقصروا الثقة والاتكال على مجرد مواد اعتقاد واحتمالات.

بمن نستطيع أن نثق؟

لقد رجعنا إلى مسائل الثقة في بعدها الطبيعي مثل الاتكال ـ الذي هو جوهرياً إمكان التوقع. إنها في النهاية الثقة بين الناس هي التي نريد فهمها والثقة بالناس ليست مسألة مجرد توقع لسلوكهم. قد تكون الثقة بالحيوان حالة نلقاها في منتصف المسافة، ولكن بالنسبة للأغلبية منا فإن طرح مسألة هل نثق بالحيوانات أم لا نثق أو كيف تبنى الثقة مع الحيوانات هي مادة ثانوية وموضوعاً لنقاش قوي ـ مثلاً فيما إذا كانت الانتروبو مورفيسم أي (معاملة الحيوانات كأنهم أناس)، هو أفضل طريق لبناء الثقة معهم[56]. على أية حال الأمر الذي يهمنا هنا هو خلق وبناء وإصلاح الثقة في العلاقات الإنسانية وفي المؤسسات وهي

(56) أفضل دفاع وأكثره فلسفية لهذه النظرة جاء على لسان الضليع مروض الحيوانات (والشاعر المتميز)

ليست مسألة مجرد اتكال. على أية حال تواجهنا المؤسسات بمشاكل خاصة.

عندما يُطرح موضوع الثقة فيما يتعلق بمؤسسات مثل الحكومات والأسواق والشركات ـ أي البعد الاجتماعي والسياسي ـ فإن مفهومي الثقة والاتكال يصبحان إشكالية صعبة بشكل خاص. ومع أن المؤسسات ليست كالأفراد (مفهوم «وجه لوجه» صعب التطبيق على المؤسسات مثلاً) فإن المؤسسات هي كيانات إنسانية. إنها ليست مبتكرات إنسانية فقط مثل الجسور وناطحات السحاب والنظريات. إنها إنسانية تماماً بمعنى أنها مؤلفة بكليتها وتسير وتعمل وتتحرك بفضل أعمال وقرارات أفراد وجماعات إنسانية. ينشأ التعقيد جزئياً بسبب التهرب من قضية المسؤولية. إن أنظارنا تكون مستقيمة واضحة تماماً عندما يتم إسناد المسؤولية إلى أفراد. ولكن عندما «تعمل» الشركة لا يكون واضحاً على الإطلاق كيف يمكن تحليل وكالتها (الممثلة لها)[57]، وهذا يتضمن أكثر من

= is Vicki Hearne, Adam's Task: Calling Animals by Name (New York: Random House, 1982).

(57) يوجد أدب واسع في هذا الموضوع انظر مثلاً:
See, e.g., Peter French, "Responsibility and the Moral Role of Corporate Entities", in Business as a Humanity, edited by R.Edward Freeman and Thomas Donaldson (New York: Oxford University Press, 1994), 88-97; Manuel G.Velasquez, Business Ethics (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1982).

تحديد الفضل واللوم. وأهم من ذلك بالنسبة لأهدافنا هنا تلك المسائل حول طبيعة الثقة. هل الثقة بشركة (لنقل شركة موتورولا أو أركسون) مثل الثقة بشخص؟ أم أنها أكثر شبهاً بالوثوق (الطقس) بالحالة الجوية (وبأية قوة أخرى من قوى الطبيعة). من دون ريب أن شخصاً متوحداً يواجه شركة عملاقة في جدال ائتمان أو دعوى مسؤولية قانونية ليشعر أنه في مواجهة قوة غامضة لا وجه لها من قوى الطبيعة. ولكن لا ينبغي لنا أن نعطي هذا الانطباع المألوف وزناً كبيراً. هناك لحظات يبدو فيها أحد الزوجين أو أحد الأولاد اليافعين وكأنه من قوى الطبيعة وراء نطاق العقل والتفكير وراء نطاق أشكال المفاوضات والتعهدات التي تتأسس الثقة عادة فيها. ولكن لا يراودنا أي شك في أننا نتعامل مع (شخص) وليس مع قوة من قوى الطبيعة. (ربما باستثناء بعض الحالات القصوى في الأمراض النفسية).

إن الفرق بين قوة الطبيعة التي يمكن توقعها وضبطها فقط وبين المؤسسة الاجتماعية السياسية المالية التي يمكن اعتبارها نوعاً من الوكالة له أهمية في حضور الشعور المتبادل. لا يمكننا أن نتوقع أو نضبط سلوك الناس الآخرين وحسب. نحن نحاول إقناعهم. إننا نناشد عواطفهم وتعاطفهم ومخاوفهم وآمالهم ورغباتهم. جاء في إحدى المقالات المألوفة أن الشركات تفكر في نوع واحد من المنفعة وتلك هي منفعتها في خطها الأساسي المالي، ولكن حتى لو كان هذا النص الساخر صحيحاً فإنه مع

ذلك يوحي بأن المؤسسات لها منافع واستراتيجيات وهذا يؤدي بنا إلى أن نفكر فيها بتعابير إنسانية.

ليس للآلات والحجارة منافع واستراتيجيات. ليس للطبيعة منافع (نظن أنه توسيع للتعبير حين ننسب «المنافع» إلى الحيوانات الدنيا والنباتات مع أن هناك ظروفاً تؤدي إلى ازدهارها وأخرى تؤدي إلى موتها). ولكن إذا كان للمؤسسات منافع ولو كانت منافع اقتصادية ضيقة وتسلك سلوكاً استراتيجياً فإن من الممكن مناشدتها والتفاوض معها، والاعتماد أو عدم الاعتماد عليها لإنجاز تعهداتها. ومعظم الشركات لا تفكر عبر هذا «الخط الأساسي» الضيق، ولكنها بالأحرى تفكر في منافع لها متعددة (وبدرجات متفاوتة) البعض من هذه المنافع مالي بشكل مباشر، ولكن الشركات تأخذ بحسبانها أيضاً الحاجات والمنافع للكثير من المودعين وأوضحهم زبائن الشركة والعاملين فيها، وأيضاً الجماعة المحيطة والمجتمع الواسع بأسره. إن ما يظهر الشركة ويعرّفها ليس هوامش ربحها ولكن شعورها بالالتزام والمسؤولية.

علاوة على ذلك أن قضية المسؤولية ليست متبلورة جداً كما تبدو لأول وهلة. إن شركة ما (أو أية مؤسسة) ليست مؤلفة من الغوغاء كما أن قراراتها والتزاماتها ليست من أعمال الدهماء. كل مؤسسة هي أيضاً منظمة، مما يعني أن لها نهجاً ما (إما ديمقراطياً وإما فاشستياً وإما برئاسة مجلس من الموظفين) من

أجل اتخاذ القرارات. وإذا استخدمنا نموذج بيتر فرنش Peter French في (بنية القرار الداخلي) لمنظمة ما نستطيع أن نميز بين رأي شخص صادف أن وُجد في إحدى الشركات (وتسلم منصباً رفيعاً أو غير رفيع)، وبين آراء أشخاص مناسبين في الشركة ممن يتمتعون بالقدرة على صنع القرارات وإبرام التعهدات باسم الشركة[58]. حتى المدير التنفيذي في شركة ما يمكن أن يلحّ على التمييز بين آرائه الشخصية وبين بياناته التي يصدرها باسم الشركة. وهكذا تكون مسؤوليات الشركة من بعض النواحي - حتى ولو كانت شركة ضخمة مؤلفة من مئات الآلاف من الموظفين والمديرين - مستمدة أساساً من مسؤوليات أفراد الكائنات الإنسانية فيها.

إن نهج صنع القرارات الداخلية في شركة أو مؤسسة ينبغي أن يوضح بشكل لا لبس فيه أسس تلك الوكالة والقدرة على صنع القرارات فيها بعدد من الطرق. إن البيانات الرسمية الصادرة عن الشركة قد لا تكون أكثر من نظرة أغلبية العاملين فيها (مع أن هذه الطريقة ما زالت نادرة نسبياً). وقد تكون هذه البيانات على خلاف ذلك بيانات ديكتاتورية صادرة عن شخص مفرد له المقدرة كمدير للمنظمة. أو كما يجري في الشركات قد يحدد نهج صنع القرار عدداً من الأدوار المختلفة يسندها بطريق

---

(58)

French, "Responsibility and the Moral Role of Corporate Entities".

التسلسل أو الترابط إلى دوائر وأقسام ومجالس ولجان. والأمر الجوهري في اعتبارات الثقة هو أن الشركة تستطيع ويجب عليها أن تظهر بمظهر المضطلع بالمسؤوليات الإنسانية.

ولذلك فإن الثقة بشركة تشبه الثقة بشخص أكثر مما تشبه الاتكال على الطبيعة أو على الآلة مهما كانت تعقيدات تحديد الوكالات المسؤولة المناسبة. فإن هذه الثقة تتضمن علاقات إنسانية لا مجرد توقع وضبط.

إن ضخامة الثقة المتضمَّنة في هذا الموقف حثت فيلسوف الوجودية الأول سورين كييركغارد Soren kier kegard على وضع كتاب كامل يتناول فيه بلاء الثقة بالله في مواجهة صروف مخيفة. وربما تكون خلاصة هذا الكتاب أفصح تعبير لدينا عن الثقة الأصيلة. الإنسان يعرف الدليل المضاد ويقبله ومع ذلك يختار ـ بحماس ـ أن يثق. الثقة بالله تتطلب ثقة غير مشروطة لا تشبه أية ثقة أخرى. ثقة قد تظل قوية وثابتة رغم التعرض لمضار الخيانة الظاهرية ولكنها بهذا المعنى تكون استثنائية وليست نموذجاً (أو مثالاً).

هناك نص آخر يفسر هذه النقطة وهو كتاب أيوب، وفيه أن شخصاً طيباً عوقب مرات كثيرة وبقسوة لإرضاء رهان بين الله والشيطان. حافظ أيوب على ثقته (مخالفاً نصح رفاقه) و«جعله الله معافى» في النهاية. ولكن بلاء الثقة كما وصف في العهد القديم هو حد أقصى ولا يشبه أبداً أي نوع آخر من الثقة.

ذلك البلاء أعيد في العصور الحديثة في مذابح (هولوكوست) النازيين وعلى مقياس شخصي أكثر فقضى بشكل مأساوي على ملايين من المؤمنين المخلصين. يعيد العهد الجديد تثبيت هذه الثقة. ولكنه يقترح أن الثقة بالله وكون الإنسان متلقياً لنعمة الله ليسا متلازمين بشكل آلي (أوتوماتيكي)[59]. إن الثقة بالله لا تشبه أية ثقة أخرى بذلك الإله. ربما يمكننا أن نثق وحسب «ولا يهم بماذا نثق» ولكن مع الناس والمؤسسات ينبغي لثقتنا أن تكون دائماً محترسة واعية وحسنة التمييز حتى في تعهداتنا المشروطة إلى أقصى حد.

---

(59) تاريخ مفهوم نعمة الله وعلاقته بالثقة والإيمان هو قصة مثيرة بما لها من حق خاص. إن مفهوم النعمة يعود إلى العبرانيين القدماء وأطروحتهم المركزية هي أن الله مستقل بذاته وليس عليه التزامات. يستطيع أن يعطي النعمة أو يرفض إعطاءها دون النظر إلى الإيمان أو الجدارة، ومع أن العبرانيين كانوا مضطرين إلى الثقة بالله، فقد كانوا يدركون أنهم لا حق لهم بنعمته هذه. ناقش القديس أوغسطين (نقاشاً شهيراً) أطروحة مماثلة ضد بيلاغيوس Pelagiusورفض وجود الصلة بين الأعمال الجيدة والخلاص من الخطيئة. ثمة أطروحات مشابهة كانت مألوفة في عصر الإصلاح الديني عندما ألح لوثر Luther وكالڤن Calvin على عدم وجود علاقة بين الأعمال الصالحة والحصول على رضا الله. وفي الحقيقة إن لوثر بدأ الإصلاح الديني باعتراض على فكرة أن الإنسان يستطيع أن يشتري (يرشي الله من أجل) الخلاص، ورفض كالڤن رفضاً صارماً أن يكون الإيمان إما شرطاً وإما ضماناً لخلاص من اصطفاه الله.

فضيلتان: الثقة وجدارة الثقة

إن الثقة والقدرة على تعيين جدارة الثقة ليستا سواء مع أن الثقة وجدارة الثقة مرتبطتان منطقياً (بشكل واضح) وأن يكون المرء جديراً بالثقة معناه رغم كل شيء هو أن يكون جديراً بأن يوثق به. ولكن في الكتابات الحديثة عن الثقة اندمج المعنيان واختلطا معاً[60]: الثقة (فعل الوثوق) وجدارة الثقة (جدارة المرء أن يكون موثوقاً). واعتبرت جدارة الثقة لا شيء أكثر من الاتكال، وبذا تناقصت عملية الوثوق ثانية إلى الاتكال والتوقع.

ما ان يجري الإنسان تمييزاً بسيطاً بين فعل الوثوق وبين كون الإنسان موثوقاً حتى يتبين له أننا نتكلم على علاقة معقدة هي في كل حال متناظرة دائماً. «الثقة» كاسم كلمة غامضة.

---

(60) مثلاً دمج المعنيون مفكرون محترمون من أمثال برنارد ويليامز Bernard Williams ونيكلاس لوهمان Niklas Luhman. ويليامز هو أحد أوضح الفلاسفة في مجال الأعمال تذرع برطانة نظرية اللعب. وانجذب إلى النطاق النظري للعب، فوجد نفسه قد وقع في شرك التناقضات الناجمة عن التفكير في الثقة على أنها تخمين خطر، وفي الوقت نفسه (وكان على حق) شك بأن الثقة قد لا تكون كذلك.

See Bernard Williams, "Formal Structures and Social Reality" in Trust: Making and Breaking Cooperative Relations, edited by Diego Gambetta (New York: Blackwell, 1988), 3-13. For a more sophisticated use of this strategy, see Russell Hardin, "Trusting Persons, Trusting Institutions", in Strategy and Choice, edited by Richard Zeckhauser (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1991), 185-209. See also Hardin, "Trustworthiness", 28.

وعلى ذلك فإن دمج الوثوق وجدارة الثقة هو منزلق بريء، ولكن يستطيع المرء أن يرى كيف يمكن أن يؤدي تماماً إلى الاختلاط. في أمر واحد فقط تبدو جدارة الثقة كما لو أن لها حالة «موضوعية» وذلك أنها تعتمد على وقائع معينة حول الشخص كي يكون موثوقاً. يمكن البرهنة على جدارة الثقة، ويمكن تأسيسها بالأسباب والأدلة وهكذا تتناقص إلى نوع من الاتكال. ويمكن تطبيق هذا على جدارة الثقة المؤيدة بالجزاء، حيث يعاقب الشخص على إخفاقه في إنجاز التزامه. قد يجادل المرء في أن ذلك ليس مجرد اتكال لأن منافع الشخص الموثوق التُمست هنا بصراحة. ولكن لأن الدافع إلى إنجاز التعهد هو تجنب العقاب أكثر منه احترام التعهد يستطيع الإنسان أن يجادل بأن هذه ليست لحظة جدارة الثقة بل لحظة التبصر والاحتراس وحسب.

من ناحية أخرى قد تستعمل الثقة مثل تلك الأسباب والأدلة ولكنها أكثر اعتماداً على تجربة ومواقف الشخص الذي يثق منها على الوقائع المتعلقة بالشخص الموثوق. ولوضع المسألة بصراحة، يستطيع المرء اتخاذ قرار بأن يثق بشخص ليس جديراً بالثقة وهو يعرفه أنه كذلك. وقد يثق المرء ببافع مجرم فقط من أجل أن يعلمه معنى الثقة ومزايا أن يكون المرء موثوقاً. وقد يكون شخص ما أهلاً للثقة تماماً ولكن بسبب الظروف أو البارانويا لدى الأشخاص المعنيين لا يكون موثوقاً.

ليس بوسع أي مقدار من التوضيح الواقعي أن يزيح قراراً صارماً بعدم الثقة.

غالباً ما كنا نجد الثقة وجدارة الثقة مختلطتين عندما كنا نعمل مع مجموعات مشتركة وفي منظمات. يُثنى على الثقة عندما يكون واضحاً أن جدارة الثقة هي مدار الكلام. أما حين يأتي موضوع الثقة كفعل فإنها تعالج بحذر وتردد. فمثلاً في أحد التمارين (وهو أكثرها جدوى) يطلب إلى المجموعة أن تملأ فراغات نحو: «الثقة هي شيء أنت ... ...» الجواب العادي هو «تربحه» مما يشير بوضوح إلى جدارة الثقة. الجواب البديل هو «تعطيه» وهذا يشير إلى الثقة. ويُناقش بعد ذلك فضيلة كل طريقة من طريقتي التفكير هاتين. هذا التمرين مفيد، والتحول من جدارة الثقة إلى الثقة ليس بالمنزلق البريء. والمنزلق نفسه من الثقة إلى جدارة الثقة ليس بالبريء على الإطلاق. إنه يوحي برفض الثقة وربما بالخوف من الوثوق.

على أية حال من الخطأ أن ندفع الثقة وجدارة الثقة إحداهما عن الأخرى مسافة بعيدة. يبدو واضحاً لنا أنهما في معنى غير مبتذل وجهان لعملة واحدة. ومن المستحيل علينا تقريباً ألا نناقش الاثنتين إحداهما تلو الأخرى تباعاً. لماذا يثق المرء؟ الجواب الذي يبدو تافها: لأنه يعتقد أن الشخص الآخر جدير بالثقة. وجدارة الثقة (ربما تكون كسائر الفضائل) لا تعني شيئاً إن كانت في عزلة، ولولا الثقة لما وجد مكترث لا متأثر

ولا واثق. تبدو جدارة الثقة قادرة على التحليل بلغة الأسباب والأدلة أما الثقة فهي فاتنة آسرة تماماً لأنها غير محددة بمسائل الأسباب والأدلة. يستطيع الإنسان أن يقيس جدارة شخص بالثقة بطريقة مباشرة كما تبين تجارب نفسية كثيرة ضحلة ومسلسلات التلفزيون الهزلية. من ناحية أخرى إن امتحان ثقة شخص ما مسألة مختلفة. إذ يوجد هنا عدم تناظر حقيقي. يستطيع المرء أن يرى «إلى أي مدى تسير الأمور» ولكن الرابطة بين رغبة المرء في الثقة وبين وقائع الوضع ضعيفة في أحسن الحالات. يمكننا أن نقول أن جدارة الثقة هي «موضوع الثقة» ولكن بين الفعل والموضوع قد يوجد فجوة كبيرة أحياناً لا يمكن العبور فوقها[61].

---

(61) قد تكون جدارة الثقة على هذا الحساب ما يسمى أحياناً الموضوع الشكلي للثقة. كتب انتوني كيني Antony Kenny متبعاً أرسطو والمدرسيين (السكولائيين) عن رد الموضوعات الشكلية لمختلف الانفعالات ـ أي تلك الموضوعات التي من دونها لا يكون الانفعال موضوع بحث، كما هو عليه. وهكذا فإن الموضوع الشكلي للخوف يجب أن يكون الخوف من شيء. الموضوع الشكلي للحب هو المحبوب. الموضوع الشكلي للغضب ما يغضب ويحنق ويغيظ.

See Anthony Kenny, Action, Emotion, and Will (London: Routledge and Kegan Paul, 1963).

اقترح رونالد دوسوزا Rounald De Souza أن الموضوع الشكلي لحس الدعابة هو «الأمر المضحك».

See Rounald De Sousa, The Rationality of Emotion (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1987).

لقد ذكرنا الثقة وجدارة الثقة بوصفهما فضيلتان ولم نفصل القول في ذلك. ومن المهم أن نقدر لم يعتبران فضيلتين. من الواضح أن جدارة الثقة هي فضيلة ولكن ليس من الواضح أن إيلاء الثقة هو كذلك. إن إيلاء الثقة ليس دائماً تصرفاً حكيماً. الصدق كذلك ليس دائماً تصرفاً حكيماً ولكننا نقول دون تلكؤ إن الصدق في ذاته فضيلة. والشخص الذي هو غير قادر على إيلاء ثقته هو شخص مسكين في الواقع، والمجتمع الذي ينقصه مناخ الثقة هو مجتمع فيه اختلال وظيفي من نواح مختلفة. إن الشخص الذي يثق هو قادر على إنشاء علاقات حميمية، وهو يبحر في عالم معظم الناس فيه جديرون بالثقة وواثقون. (الشخص الذي يعيش في مجتمع تكون فيه الثقة لا شيء سوى سذاجة وغباء لا يرى أن الثقة فضيلة). والقول أن الثقة أو أية مزية مقترحة أخرى فضيلة ليس بالضرورة القول أنها فضيلة في شتى الظروف أياً كانت.

يمكن القول أن الثقة هي فضيلة بقدر ما تكون جدارة الثقة فضيلة في مجتمع واثق. إن مجتمعاً يتصف جوهرياً بعلو شأن الثقة فيه يكون قادراً على التعاون والتنظيم إلى مستويات لا

= الموضوع الشكلي للثقة ينبغي أن يكون جدارة الثقة والحالة الأفضل أن يكون الشخص الجدير بالثقة أو بالأحرى شخصاً في وضع قام فيه بتعهدات وحقق توقعات وأمل أن يكون جديراً بالثقة.

تستطيع الشعوب المنخفضة الثقة أن تتصورها. إن الثقة ـ وليس فقط أن يكون المرء جديراً بالثقة معتمداً عليه ـ فضيلة وعدم القدرة على الثقة وعدم الرغبة فيها كلاهما نقيصة ورذيلة. وليس من الواضح إن كان عدّ الثقة فضيلة طريقة (لإضفاء صفة أخلاقية عليها) كما يوصي رسل هاردن Russell Hardin ولكن عدّ الثقة فضيلة اتباعاً لتصور أرسطو للفضائل على أنها سمات للطبع الذي يفضي إلى الإنجاز وإلى حياة منسجمة في المجتمع[62]. ومما لا شك فيه أن القدرة والرغبة في الثقة هما من بين أهم تلك الفضائل. والإخفاق في الثقة بأحد الناس ليس مجرد إهمال. إنه إذن أمر منافٍ للأخلاق ألا يثق المرء بأناس جديرين على نحو ظاهر بالثقة بقدر ما هو مناف للأخلاق معاملتهم على نحو جائر. بل في الواقع قد يكون رفض إيلاء الثقة للناس أكثر إيذاء لهم من معاملتهم بشكل جائر. لأن معاملتهم بهذا الشكل تخفق في إعطائهم ما يستحقون أما حرمانهم من الثقة فيحدّ من قدرتهم على العمل بصفتهم كائنات إنسانية كاملة.

إن جدارة الثقة هي سمة من سمات الطبع، ولذلك هي مرشحة مقبولة للفضيلة حسب الصيغة المعيارية. (ألح أرسطو على أن «الفضيلة هي سمة طبع وليست هوى أو ملكة» أو هي كما يثبت برنارد وليامز Bernard Williams: «إنها استعداد في

(62) Hardin, "Trustworthiness".

الطبع ليختار أفعالاً ويرفض أخرى»[63]. قد يقول المرء أن شخصاً يمكن أن يكون جديراً بالثقة في مناسبة واحدة فقط، ولكن هذا النفع يبدو تطبيقاً فاسداً لدعوى أعم بكثير عادة. وتقييد مجال جدارة الثقة كثيراً هو تهديم لطلب الفضيلة. وقد يبدو غريباً أن نقول أن (جونس) جدير بالثقة عندما يكون عليه إخراج القمامة يوم الأحد حين لا يكون هناك مناسبات أخرى يُعتمد عليه فيها ليكون جديراً بالثقة. قد نشك في وجود سبب مستقل آخر ـ له علاقة قليلة بالثقة ـ يحث جونس على أن يخرج القمامة. من ناحية أخرى نقول بسرور إننا نثق بأن سميث سيأتي إلى موعده في الوقت المحدد سواء كنا أو لم نكن قد وثقنا بسميث من قبل، أو أننا سنثق به بعد ذلك في عمل أي شيء آخر. وهكذا فإن الثقة على خلاف جدارة الثقة تبدو عَرَضية. يمكن أن تبقى الثقة وقتاً أطول كما هي الحال في الزواج أو في علاقة عمل طويلة الأمد، ولكن يستطيع المرء أن يجادل في أن

---

(63) Aristotle, Nicomachean Ethics, translated by W.D.Ross (Oxford: Oxford University Press, 1948), book 2, chapter 5; Bernard Williams, Ethics and the Limits of Philosophy (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1985), 9. Cf. Aristotle, Nicomachean Ethics, book 3. William Frankena, no friend of "virtue ethics" has suggested that the virtues are no more than the disposition to obey rational principles, thus eviscerating the topic as worth study in its own right. William Frankena, Ethics (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1973), 64.

الثقة مع ذلك هي صنيعة أعمال وخيارات وممارسات فردية ولا تكون ذات معنى إلا ما دامت مطبقة عملياً. وهكذا وفقاً للصيغة المعيارية (وهي أن الفضيلة نزعة طويلة الأمد أو حالة طبع) قد لا تبدو الثقة مرشحة جاهزة للقب الفضيلة.

يوجد الكثير مما يمكن قوله حول جدارة هذه الحجة ولكن نقول باختصار إننا نرفضها لأنها تشمل أمرين: تصوراً خاطئاً للفضيلة ومفهوماً ضيقاً جداً للثقة. أما صيغة أرسطو فتعوق تحليل الثقة على أنها فضيلة ما دامت «هوى» ولكن ثمة أهواء كثيرة تعتبر بوضوح فضائل. الحب مثلاً انه هوى غالباً يذكر أنه فضيلة شخصية بالتأكيد. ومع أن الحب يتضمن احداثاً فإنه بحكم طبيعته شديد التحمل. قد يجادل المرء فيما إذا كان الحب فضيلة أم لا كما فعل المتحدثون في كتاب «المأدبة» لأفلاطون[64]، ولكن ينبغي علينا على الأقل أن يكون عندنا قليل من الشك حول إبعاد الهوى - والانفعالات بوجه عام - من قائمة المرشحين للقب الفضيلة. الثقة هي انفعال أو موقف انفعالي رغم أنها بالتأكيد ليست انفعالاً بالمعنى العادي ولذا نريد

(64) Plato, Symposium, translated by Alexander Nehamas and Paul Woodruff (Indianapolis: Hackett, 1989). See also Robert C.Solomon, "The Virtue of Love", in Ethical Theory: Character and Viture edited by P.French. Midwest Studies in Philosphy. Vol 13 (Notre Dame, Ind.: Notre Dame University Press, 1988), and in the Joy of Philosophy (New York: Oxford University Press, 1999) chapter 1.

أن نكون حذرين ولا نبعدها عن صنف الفضائل الأخلاقية المهمة. لا تدل أعمال الفرد وحدها على بعض جوانب طبعه بل مشاعره الفردية تدل عليها أيضاً. ولا ينظر إلى هذا الطبع على أنه «حالة» بل على أنه صورة تشف عما هو كامن. إن جدارة الثقة فضيلة. ولكن الجزء الجوهري من حجتنا يثبت أن الثقة فضيلة أيضاً ـ إنها أمر يتعهده المرء ويختاره، إنها طريقة عملية للعيش تقوم بأمرين معاً تحدد أصناف شخصياتنا كما تتحدد نهائياً بهذه الأصناف.

الثقة المشروطة

أشرنا سابقاً إلى أن الثقة نادراً ما تكون «غير مشروطة» وحتى حينما يقال أنها كذلك تماماً يلزم التفريق الدقيق بين مجرد نقص التمييز أو السذاجة. وقبل أن نستطيع الشروع في فهم الثقة الأصيلة من المهم لنا أن نبحث مع بعض التفصيل في مركز الثقة ومجالها وحدودها أو ما يشار إليه غالباً بأنه «موضوع» الثقة.

إن موضوع الثقة غادة هو شخص معين أو مجموعة أشخاص. في بعض الأحيان قد يكون لمثل هذا الوصف الشمولي معنى كما في الزواج ولكن عادة (حتى في الزواج) فإن الثقة، حتى الثقة البسيطة لا تكون شاملة تماماً دون شروط وتخوم وحدود. نحن من دون تفكير نثق بساعي البريد أنه سيحضر بريدنا إلى الباب الأمامي. وتراودنا الشكوك مباشرة إن

هو غيّر أسلوبه فجأة وبدأ يأتي من الباب الخلفي أو يخطو ببساطة داخل المنزل. حتى الثقة البسيطة الساذجة لها حدودها وتخومها. ولأن الثقة البسيطة غير واضحة وخالية من عدم الثقة فمن السهولة بمكان أن نفترض أنها غير مميزة. ولكن ثقة الطفل الصغير بالذين يعتنون به في البداية هي انتقائية سلفاً. وبعض الكلاب (كالكلاب الألمانية الداتشهاند مثلاً) مشهورة بأنها تظهر ثقة شاملة بأصحابها. (والقول أنه) ينبغي على المرء أن يكون له «موقف واثق تجاه العالم» هو وضع إهمال صحي ولكنه لا يستتبع أن الثقة ليس لها حدود.

وهذا أيضاً صحيح فيما يخص رتبة الثقة في علاقة ما. نقول إننا نثق بفلان وبعلاّن ولكن هذا القول يترجم عادة إلى وصف مختصر ذي سياق مقيد لصيغة: «أنا أثق بفلان وعلاّن لأفعل هذا وذاك». لنفرض أننا دخلنا في اتفاق في مجال الأعمال: سأنتج أنا أربطة أحذية إذا استطعت أنت أن تزود بالأحذية. أنا أثق بفطنتك في مجال الأعمال وبذكائك وبصدقك وبحسّك السليم وبمعرفتك في موضوع الأحذية ... هل يجب علي بناء على ذلك أن أثق بك لتعتني بأولادي؟ هذا سؤال سخيف ولكن ما الذي يجعله سخيفاً؟ ذلك أن الثقة هي دائماً مقيدة وهي عادة خاصة تماماً. بل حتى في أكثر التفاعلات خصوصية يوجد الكثير من الادعاءات الخلفية والشروط الخفية للثقة ـ كأن تثق بالبقال أن يعطيك سمكاً طازجاً وغير ملوث

بنفس السعر المعلن .. نحن أيضاً نثق بأن البقال لم يبصق على السمكة وأنه غسل يديه جيداً، ونحن نتكلم هنا عن بقال نعرفه فماذا يكون الحال مع محتال دجّال أو زائر غريب، أو إلى ما هنالك من صف طويل من الاحتمالات التي لا يستطيع أن يبتكرها إلا فيلسوف أو كاتب أحمق لقصة من الخيال العلمي، أو شخص مصاب بالبارانويا إلا أن الثقة في حد ذاتها مع ذلك مشروطة ومركّزة ومحدودة.

إن مجال الثقة ومركزها كلاهما ليس بيّناً بذاته على الإطلاق. حين تصبح المشاركة في العمل صداقة وتصبح الصداقة أكثر التزاماً قد يبدو الأمر أنه: «لا أجد في هذا الشخص ما لا أثق به» ولكن المرء يستطيع دائماً أن يجد حدوداً إذا حصل بعض التعارض نخص هنا بالاعتبار موضوع الزواج. لنفرض أننا قررنا بشكل عفوي أن نتزوج ذات ليلة على ضوء النجوم في قارب الحب. وقبل أن يرسو القارب في جزر الباهاما عقد قراننا ربّانُ السفينة كما ينبغي. أحبك. هل يتبع أني بناء على ذلك أثق بك أن تعتني بأولادي؟ إن هذا ليس سؤالاً سخيفاً جداً بقدر سخف السؤال الموجه آنفاً إلى صانع الأحذية. وفي الواقع إن ثقة رابطة الحب هذه ربما كان لها أساس أكثر اهتزازاً من ثقتك بأولادك حين يشاركونك في مجال الأعمال. يتطلب مجال الأعمال ثقة مطوّقة جيداً محددة على حين أن الزواج هو ثقة واسعة مفتوحة الخيارات في نهايتها. إن ثقة شخص بحبيبه «من

دون حدود» و «من دون شروط» قد تكون على أية حال ثقة غير منطقية مهما كان الحب صادقاً كأن يكون هناك سبب لعدم الثقة بكفاية المحبوب أو بضبطه لنفسه. فحتى الحب له حدوده مع أننا حين نكون رومانتيكيين ندعي أنه لا يوجد مثل هذه الحدود.

في اللغة الإنكليزية وفي الفكر الغربي على العموم ثمة ميل ملازم نحو التعميم ولا سيما ميل نحو تعميم الثقة، وليس ذلك من أجل تعرف تقيدها بالمجال وبالمركز. إذا قلنا أننا «نثق» بشخص ما فيبدو أننا نضمّن قولنا أننا نثق به «من كل ناحية» وربما «دون شروط» وهذا ما عناه فرانك سيناترا في الحب، «إذا كنت تثق بهم حقاً فإنك ستثق حتى النهاية».

غالباً ما نتحدث بمصطلحي «الوثوق» أو («عدم الوثوق») بأحد الناس، ولكن يبدو أن التفكير في الثقة يظهر أننا دائماً نثق بالناس من بعض الوجوه فيما يخص أداء بعض الأعمال والمشاركة في بعض الممارسات المحددة جيداً، وفي بعض المجالات التي أُحسن تحديدها قليلاً أو كثيراً. وهكذا قد نثق بزوج أن يكون مخلصاً جنسياً، ولا نثق به أن يصل في الوقت المحدد دائماً. قد يثق المرء بطبيب الأسنان لأنه يعتني بأسنانه، ولكنه لا يثق به أن يعتني له بمنزله أو بممتلكاته. قد يثق المرء بأخيه «ضمنياً» في سلامة حياته الخاصة (بكل معنى الكلمة) ولكن لا يثق به إن كان بيده بندقية.

إن السياق والمواءمة يساعدان على تعيين حدود الثقة. نثق بأن زميلاً في العمل يتذكر موعد الاجتماعات لا أن يتذكر أعياد ميلادنا. نثق برؤساء شركة ما أن يصفوا لنا الوضع المالي للشركة بصدق، لا بأن يخبرونا عن حياتهم الشخصية وهِناتهم ونقاط ضعفهم. ونحن كثيراً ما نعمم مثل هذه الثقة لتشمل مجالات أخرى غير المجال المطروح، إلا أن هذا التعميم بقدر ما هو دليل على عدم التفكير العميق هو اتساع أصيل في المجال. وأفضل للإنسان وأسهل دائماً أن يثق من ألا يثق ـ إن لم تتوافر معلومات أخرى (داعية لعدم الثقة) ـ وهكذا أحرى بنا أن نقول ببساطة: «أنا أثق بفلان وعلان» من أن نقول: «أنا أثق بفلان وعلان في فعل س او ج او ع» مع ادعاء مفعم بالأمل بأنه إذا كان هناك من هو جدير بالثقة بخصوص بعض الأعمال فإنه ربما سيكون جديراً بالثقة بالنسبة لأعمال أخرى. ومع ذلك يوجد دائماً حدود، والتعرف على هذه الحدود وليس بأي حال من الأحوال رفضاً للثقة. وفي الواقع إن تعرف الحدود هو جزء جوهري من الثقة الأصيلة.

ما وراء الكفاية

أحد الشروط الواضحة للثقة هي كفاية الشخص الموثوق. لا يوجد معنى في أن تعطى الثقة لشخص كي يقوم بشيء ربما لا يستطيع القيام به. وفي عالم اليوم النموذج الواضح للثقة ـ الثقة

التي يُلجأ إليها في جميع الأدبيات ـ هي الثقة بالمحترفين (المهنيين) والمختصين من كل الأنواع. إن العالم شديد التعقيد. الأدوات التي نستعملها يصعب علينا أن نصلحها بأنفسنا (فضلاً عن تصنيعها) أصبح الطب شديد التكلف والتكلفة كي يصف الإنسان الدواء لنفسه، أو إن كان المرض جدياً أن يعتمد على أطباء الأسرة الممارسين. الآلة القانونية (الحقوقية) في المجتمع أصبحت متاهية معقدة (ويعود ذلك إلى حد بعيد إلى نشاطات المهنيين أنفسهم الذين نسألهم المساعدة في هذه المتاهة). وهكذا برز للعيان أن أول اهتمام للثقة ـ ولجدارة الثقة ـ هو الكفاية.

ينبغي أن نشير، ثانية، إلى أن تعيين الكفاية شرطاً للوثوق يدمج بسهولة كبيرة الشخص الموثوق (الذي كفايته في الميزان) والشخص الذي يثق (الذي تكمن كفايته بشكل رئيسي في قراره بإيلاء الثقة). ولكن الكفاية مع أنها ظاهرياً جوهرية فإنها يُغالى في التأكيد عليها في مناقشات الثقة. الكفاية ليست أكثر من شرط سابق. إنها ليست قلب الثقة.

عندما ننادي طبيباً أو سمكرياً أو محاسباً ربما يكون ما يهمنا في المقام الأول منه كفايته سواء أكان يستطيع القيام بالعمل أم لا. ولكن هناك فارق حرج بين كون المرء قادراً على إيلاء ثقته بشخص وبين معرفته بأن ذلك الشخص هو كفء. هذا الفارق لخصه بعض الفلاسفة بكلمات «وجود الإرادة الطيبة» أي أن يكون لديه الاهتمام الكافي بالإضافة إلى أنه كفء في

مهاراته[65]. نحن نثق بالغريب الذي يتوقف لمساعدتنا في تغيير إطار السيارة، ليس فقط لنعرف كيف يغير الإطار، ولكن يا للأسف هذه الأيام لأننا نخشى أن يسرقنا. بالنسبة للذين أصبحوا آباء وأمهات حديثاً ولجليسات الأطفال قد يعقد الأمل على الكفاية عندهم أكثر من توقع الأمان (مثلاً الكفاية في عدم سقوط الطفل من أيديهم أو الكفاية في تذكر أوقات طعامه وتقديم الغذاء المناسب له). ولكن الإرادة الطيبة والشعور الطيب لدى الجليسة ـ التي تعتني بالطفل ـ لهما كل الأهمية. نريد أن نثق بمعرفة أطبائنا وبمهاراتهم ولكن الآن اهتمامنا الأول هو إن كنا نستطيع أن نثق بهم (أو بمنظماتهم) لكي يزودونا بأفضل رعاية وعناية. عندما ندخل مجال الأعمال نفترض عادة أن ذلك الشخص وتلك الشركة اللذين نتوجه إليهما لديهما كفاية. وما لا نفترضه هو أمر يجب أن يكون راسخاً عندنا واتخذنا به قراراً وهو إن كان ينبغي أن نثق بهذا الشخص أو بتلك الشركة أو لا نثق.

إن دور الكفاية في الثقة دور معقد. يأتي أحياناً في المقام الأول أو في مقام المركز الأول مهما كانت الظروف. نحن لا نكترث إذا لم يهتم بنا الميكانيكي. جُلّ همنا أن يكون إطار السيارة مثبتاً. في أحيان أخرى وخاصة في العلاقات الأسرية تكون الكفاية أمراً ثانوياً تماماً، أو في الواقع لا أهمية ولا شأن

(65) Baier. "Trust and Antitrust"; Jones, "Trust as an Affective Attitude".

لها في الموضوع المطروح (ندع جانباً المسألة المهمة للكفاية بين الأشخاص (البينشخصية والكفاية العاطفية). ولكن الكفاية في حد ذاتها ليست أبداً الموضوع الوحيد للثقة. وهذا ينطبق على المهنيين أيضاً فنحن مثلاً نثق بالأطباء، ليس فقط لنعرف ماذا يفعلون، ولكن لنلفت انتباههم إلى ما يفعلون كي يأخذوا بالحسبان مشاعرنا واهتمامنا كمرضى وليكونوا لا تقنيين أكفاء وحسب بل أطباء جيدين. الكفاية في حد ذاتها هي موضوع الاتكال وليست موضوع الثقة. وحين نقول أن الثقة هي مسألة بين الأشخاص وليست مجرد اتكال أو اعتماد فمعنى ذلك أن العلاقة تأتي في المقام الأول لا قدرة الشخص الموثوق.

الكفاية هي القدرة على الأداء كما هو متوقع، وفقاً للمعايير المناسبة للدور أو المهمة موضوع البحث. يتضمن الوثوق بالناس بين ما يتضمن من أمور أخرى، تقدير مستوى كفاياتهم. ويستتبع ذلك أن وجهاً مهماً من وجوه الوثوق هو قياس ذلك المستوى على الضبط. إذا أعطيت الثقة لطفلٍ كي يقوم بعملية معقدة موضوعة للكبار فإن إخفاق الطفل لا يقع عليه بل يقع على الذي وثق به. إذا وُثق بصانع للقيام بما هو من مهمة معلم الصنعة يقع اللوم في الإخفاق على الشخص الذي وثق بذلك الصانع (إن علاقات الثقة قد تضخم الكفاية أو تشلّها، ولكن هذه مسألة مختلفة عن الوثوق بالناس بسبب كفايتهم) إن معايير الكفاية خاصة بكل من المهام والمجالات،

ولكن بوسع المرء أن يميز عدة أنواع من عدم الكفاية وهي تحرض بناء على ذلك أنواعاً مختلفة من عدم الثقة. إن الثقة بأطفال أو بصنّاع كي يقوموا بما ليس باستطاعتهم (بعدُ) القيام به لا يؤدي إلى تصدّع الثقة. إذ لا بد أن يكون الإخفاق سابقاً كإمكانية وبشعور واضح. إن العبء يقع على الذي يثق لا على الموثوق به، وقد تؤدي النتيجة السلبية إلى شعور بالخيبة ولكن لا تعتبر خيانة إلا بمشقة. من جهة أخرى إن ادعاء الشخص أنه يحسن عملاً وهو يعرف أنه لا يحسنه قد يكون تصديعاً للثقة. وليس نقص الكفاية الذي سبّب هذا ولكن نقص الصراحة. هنا يطفح عدم الكفاية ليكون انتهاكاً للثقة.

للثقة والكفاية فوق ذلك علاقة ثانوية أكثر تعقيداً. مع أن الكفاية قد تكون مسألة اتكال ـ أي توقع ـ فإن الثقة بالناس كي يخبروك بشكل دقيق عن كفايتهم أو نقص كفايتهم هو بالتأكيد مسألة ثقة. ويبقى الأمر الأكثر تعقيداًهو مدى ثقتنا بالناس بأن يكونوا صادقين مع أنفسهم حول مستوى كفايتهم. الجرّاح الذي تقدمت به السن، والمحامي الذي كان يدافع عن نفسه في قضية تناول المسكرات، والأستاذ البروفسور الذي غدا متعباً برماً يثير مشاكل حادة. حتى لو وثقنا بهم بأن يكونوا صادقين معنا فإننا قد لا نثق بهم بأن يكونوا صادقين مع أنفسهم فيما يخص إضاعتهم مهاراتهم وضعف حكمهم. علاوة على ذلك نحن نثق بالأكفاء من الناس لكي يحافظوا على مهاراتهم التي لا تنعكس

على الاتكال عندهم وحسب بل أيضاً على طبعهم وضميرهم الحي. ثانية ينبغي أن نثق بالأطباء بأن يكونوا صادقين معنا وصادقين مع أنفسهم حول كفايتهم، ولكن إذا لم يبقوا على إطلاع حسن ويطلعوا بضمير حي على المستجدات في ميدانهم والتكنولوجيات الحديثة في ممارستهم فإنهم سوف يفقدون الكفاية التي لدينا الحق أن نتوقعها منهم وبذلك ينتهكون ثقتنا بشكل عميق.

عندما نقول إن الثقة هي مهارة عاطفية فهذا يتضمن أن الكفاية الانفعالية هي جزء أساسي من الثقة. ومظهر جوهري من هذه المهارة سيكون مهارة في الحكم وفي رؤية العالم ورؤية الذات ورؤية الإنسان لوضعه بطريقة مناسبة ناجحة. قد تكون مهارة الشخص التكنولوجية لها المقام الأول في التجارة والمهن، ولكن حتى هناك فإن طبيعة العلاقة هي الأمر الجوهري في الثقة. وسواء في الزواج أو في مجال الأعمال أو في السياسة لا تتميز المهارات المتضمنة فيها بسهولة عن العلاقات الشخصية والعلاقات بين الأشخاص، إذ أن تلك (المهارات) جزء أساسي من هذه العلاقات. قد تكون الكفاية مفتاح المقومات في جدارة الثقة ولكنها ليست منفصلة عن المهارات العاطفية التي تجعل الوثوق ممكناً.

الثقة بصفتها وسيطاً: أكثر سوء الفهم مخاتلة

يبدو أن كلمة «ثقة» كاسم تدل على كيان في غاية الغموض. نحن نتحدث عن العلاقات كما أنشأتها الثقة. نحن نتحدث عن الثقة كما نتحدث عن الحب كشيء يحمله الإنسان لغيره. نتحدث عن الثقة كأنها جو عام أو مناخ يثق فيه الناس أو يميل أحدهم إلى الثقة بالآخر، كما يتحدث المرء عن «بيئة» أو عن «سياق». نتحدث عن الثقة كأنها تلك التي تتخلل (أو تُخفق في أن تتخلل) مؤسسات ومنظمات، كأنها أمر يمسك بالناس معاً (أو يشدهم بعضهم إلى بعض). يستطيع شخص أن يعطي الآخر ثقته وذلك الآخر «يكسبها» في المقابل. وهكذا تبدو الثقة كأنها كيان، شيء يمكن تبادله، وهو إما أن يكون حاضراً أو غائباً، وإما «كان له» قوام في ثقافة أو علاقة أو (لم يكن له)، إنه «مزلّق» أو «صمغ» وكل هذه استعارات أو مجازات تتحول بصعوبة إلى التطبيق العملي.

في علم الاجتماع يمكن الفهم بشكل كاف كيف تعالج الثقة نموذجياً كأنها خاصية سريعة السريان والانتشار في مجتمع أو جماعة أو ثقافة. إنها معنى ضمني للأمان وسبب ملموس للاطمئنان في عالم بات غير موثوق. ولكن عندما تعتبر الثقة مجازاً أنها «صمغ» أو «مزلّق» أو «مناخ وجو» أو «وسيط» أو مجرد «هراء» بسيط فجميع هذه صور ساكنة. الثقة ثاوية هناك وحسب. نزل عليها الفعل أو أنها (مزلق أو صمغ) تسهّل بشكل

سلبي الفعل وتصطنعه. إن المناخ والجو يحيطان ويؤثران ولكنهما أيضاً لا شخصيان (ليس لهما صفة شخصية) هامدان إذا توخينا الدقة. الثقة في جميع هذه الحسابات هامدة لا حركة لها. إنها ببساطة موجودة، ولما كانت كذلك يمكن أن تؤخذ أمراً مفروغاً منه ونتجاهلها إلا في أوقات الشدة. ليست الثقة وسيطاً بل إنها فضيلة إنسانية تهذبها وتصقلها الخطب والمناقشات والتعهدات والعمل. إنها لا تكون أبداً شيئاً «جاهزاً في اليد»، إنها دائماً قضية جهد إنساني. يمكن بل يجب غالباً أن تكون مبتكرة بضمير حي ولا تؤخذ أمراً مفروغاً منه وحسب. فهم الثقة معناه فهم ما يجب أن يكون وما يجب ألا يقال بتجنب تلك التعليقات الجائحة التي تثير الخوف والشك. إنها تتألف من تأكيدات في الأفعال والأقوال على حد سواء والقيام بأمرين معاً قطع الوعود والالتزام بها (جدارة الثقة) وتشجيع الآخرين على أن يقطعوا وعودهم ويلتزموا بها (الثقة). من الواضح أن جدارة الثقة هي فضيلة. ولكن قلما يُعترف بأن الثقة فضيلة ـ ذلك أن الثقة أمر جيد عملُه. يثق الأفراد، ويثق الأفراد بشكل جماعي ولكن الثقة ليست في المقام الأول ظاهرة اجتماعية كما أنها ليست متغيراً[66] خلواً من القيمة ثقافياً أو اجتماعياً. إنها مظهر

---

(66) لقد دخلت انيت باير Annette Baier ولورانس توماس Laurence Thomas في حملة خاصة لترسيخ الثقة كأساس لفلسفة الأخلاق في مقابل القاعدة السائدة ـ والعقل ـ اللذين ما زالا يحكمان النظريات الأخلاقية. =

جوهري للأخلاق بل هي مادة درس أخلاقي ومسألة تفاعل إنساني وخيار ومسؤولية. إنها ليست «هبة» في حياة محظوظة بل هي جزء خلاّق في جميع ممارساتنا الاجتماعية. الوثوق هو قرار (أو سلسلة من القرارات) يفتح العالم لنا، يبني ويعمق علاقاتنا ويخلق إمكانيات جديدة بل «عوالم جديدة»[67].

إن معالجة الثقة على أنها أمر ساكن ووسيط لا شخصي في النهاية يكون لها بالمقابل نتيجة واحدة فاسدة بشكل خاص متضمَّنة في الاستعارة المألوفة لكلمة «هشاشة» وأكثر سوء فهم مخاتلة للثقة هذا يطرح فكرة أن الثقة هي وسيط ولكنه وسيط هش لا بالمعنى الواضح فقط أي بمعنى أنه يمكن انتهاك الثقة

= See Laurence Thomas, "Trust, Affirmation, and Moral Character: A Critique of Kantian Morality", in Identity, Character, and Morality, edited by Owen Flanagan and Amélie Oksenberg Rorty (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1990).

رسل هاردن Russell Hardin يغدق الضحك من أولئك الذين يؤولون الثقة تأويلاً أخلاقياً (يدخلون الأخلاق على الثقة) الأمر الذي نراه حقاً محيّراً. إن الجزء الذي يسخر منه هو الثقة الساذجة الثقة الغبية، ولكن أن نقول أن الفضيلة يمكن أن يُساء استخدامها ليس معناه أنها ليست فضيلة. ويبدو أن البديل الذي كان في ذهنه هو المفهوم اللاأخلاقي للجدوى وللأفضلية وهذا لا نسعى أن نسميه «ثقة» على الإطلاق.

See Hardin, "Trustworthiness".

(67) Cahrles Spinosa, Fernando Flores, and Hubert Dreyfus, Disclosing New Worlds (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1997).

بفعل غير جدير بالثقة أو بتعبير أو تصريح بل بالمعنى المخاتل الغادر أي أنها هشة مثل هشاشة الكريستال أو الزجاج. تنكسر بسهولة وما أن تنكسر لا يمكن جبر كسرها. نتكلم على الثقة حين تكون «مبعثرة محطمة» أو «مهدمة».

هاكم القصة المعيارية الموحدة: نبدأ علاقاتنا بموقف إهمال. إن الثقة الحقيقية هي «الثقة البسيطة»، الثقة التي لا تتطلب انتباهنا، الثقة التي بقيت حتى ذلك الحين غير مشوشة. ولكن إذا كان الوضع غير مؤكد نظل نثق بشكل مؤقت تجريبي إلى أن تترسخ الثقة (أي حتى يتم التثبت من جدارة الثقة عند الشخص الموثوق)، أو تُنتهك وحينئذٍ تصبح قضية الثقة مستحيلة. إذا تثبتت الثقة يمكن أخذها أمراً مفروغاً منه أو على الأقل لا تبقى موضع خلاف وفي الواقع عندما تصبح الثقة صلبة راسخة فإن ما يشبه الصمغ يجعل العلاقة متماسكة. ولكنها بهذه الحالة تصبح هشة سريعة الانكسار. ثم ربما يقاطعها فجأة أو بعد فترة طويلة تحقق جارح مؤلم وهو أن الثقة تمت خيانتها إنها تتكسر مثل الكريستال بشكل يتعذر ترميمه. وما أن تُخان الثقة حتى تذهب إلى الأبد. ولقول الحق ينبغي للثقة أن تكون صلدة غير منطوق بها غير مهشمة كي تستطيع أن تصمد. ولكن الثقة هي أيضاً هشة وما أن تنكسر حتى يتعذر جبر كسرها.

إن الخطر في هذه القصة هو استعارة الهشاشة ومعها

الاستعارة الضمنية للصلابة[68]. وفي الواقع لا تغدو الثقة بوضع نقاش أثناء علاقة الوثوق. ولكن عندما لا تعود الثقة موضوعاً مطروحاً، عندما تُنتهك أو تخان أو ببساطة عندما تكون موضع تركيز يغدو النقاش أهم الأمور. وحينئذ تصبح استعارة الهشاشة مهلكة مميتة. هناك مثلان توضيحيان مألوفان: في الأول يجد الرجل أن زوجته كانت غير مخلصة له لسنوات قبل زواجهما. يستنتج أنه لم يعد بعد يستطيع أن يثق بها فيبدأ معاملة الطلاق متجاهلاً كل ما عاشاه معاً كل ما بنياه معاً والوحدة التي شيداها متعاونين مشتركين. هو لا يريد أن يتوجه نحو الصفح أو النسيان. لقد تحجر على سبيل المجاز بالصورة التي يتعذر ترميمها. الصورة الإيضاحية الأخرى هي عن مجموعتين عرقيتين تعيشان متجاورتين مدى قرون، وفجأة (وبسبب تحريضات سياسية وبانوراما مصطنعة وربما بإحياء بعض المظالم التاريخية) بدأت كل جماعة تهاجم الأخرى. وكان هنالك مذابح وأشكال من الثأر والانتقام وتدفقت سيول اللاجئين. هل يستطيعان أن يعودا إلى العيش معاً ثانية في انسجام؟ سيكون الأمر مخيفاً إذا أجبنا «بلا». ولكن اتخاذ هذا الجواب هو اتخاذ للقصة المجازية

(68) الفرق بين الصلابة والتضامن مهم هنا، فالأول يعود إلى شيء غير إنساني وإلى مادة كثيفة. الثاني يعود بشكل متميز إلى الإنساني إلى التفاعل حتى في ما هو روحي (في المعنى الذي قصده هيغل حين استعمل كلمة «جوهر»).

الاستعارية التي تقول أن الثقة إذا ضاعت لن يكون بالإمكان استعادتها من جديد. التاريخ والتجربة الشخصية ينبآننا خلاف ذلك ولكن القصة تحجب أبصارنا.

لما كانت الثقة ديناميكية فإنها كثيرة المرونة ومنطقية أكثر مما تسمح به الرواية، ولذلك هي قابلة للمفاوضة. إنها ليست «صلبة» وحسب كما أنها ليست قابلة للتهدم بأكملها. إن أخذ الثقة أمراً مفروغاً منه هو دائماً مخاطرة، بالرغم من الحقيقة البديهية الموجودة في علاقة الثقة، إن الثقة ليست موضع خلاف. ولكن الادعاء بأن الثقة لا يمكن كسبها ثانية (استعادتها) فتلك هي الكارثة. ليست الثقة هشة كما أنها ليست متعذرة الترميم، وديناميكية الثقة النامية وبناء الثقة يمليان بدورهما ديناميكية إصلاح الثقة وتجديدها، التي ليست ثقة «بسيطة» الآن بل ثقة أعمق وأكثر مرونة وهي الثقة الأصيلة.

لا يمكن للثقة أبداً أن (تموت) بسهولة تماماً كما أنها لم تثبت بسهولة دفعة واحدة وعلى طول المدى. ولن تكون أبداً «متهدمة» بشكل نهائي ما دام ثمة علاقات مشابهة ـ حتى علاقات العدوان والكره ـ تبقى. وتماماً كما تتطلب الثقة التقوية والتكرار واجتياز امتحانات جديدة وفرصاً فإن الثقة التي تعرضت للخيانة مرة واحدة تبقى منفتحة لاحتمالات جديدة وامتحانات جديدة وفرص جديدة، إذا جزمنا أمرنا واتخذنا قراراً ووجهنا أنفسنا نحو ترميم تلك الثقة المهدورة. ومفتاح ترميم الثقة ليس

مجرد كسب الثقة بل إعطاء الثقة حتى في غياب الدليل المشجع. بوسعنا أن نتخذ قراراً بالتجاهل (لا بالإنكار) رغم التاريخ الطويل من العدوان والخيانة إذا نحن وضعنا نصب أعيننا علاقة طويلة الأمد واحتمالات للمستقبل ورفضنا أن نسكن في الماضي وحده ليس غير. بتعبير آخر نحتاج أن نثق حتى في غياب جدارة الثقة.

إذا فكرنا في الثقة كأمر يُعطى أكثر من كونه أمراً يُكسب وأنها شيء يُخلق ويُمنح كجزء من ممارسة اجتماعية يتقاسمها الناس بدلاً من أن تكون «موجودة ببساطة هناك» في علاقة أو في مجتمع، حينئذ نجد أن الثقة تتحرك نحو عالم المسؤولية. إن فقدان الثقة هو أحد تلك الانهيارات الذي يستدعي تركيز الاهتمام على ممارسة كاملة (الثقة) وهو بذلك لا يعلن نهاية تلك الممارسة بل يعلن التقدير الواعي الذاتي لماهيتها وكيفية عملها أو عدم عملها. إنه مناسبة للتجديد بقدر ما هو خَطَر. ولكن الخطر الحقيقي ليس فقدان الثقة وحسب بل التخلي عن الثقة نهائياً. والفرصة السانحة هنا هي تأسيس ثقة أصيلة مرة أخرى، ثقة غير قابلة للتهديم وتكون تكريساً مفتوحاً متبادلاً للعلاقة.